تفسير المراغي

تأليف

صاحب الفضيلة الأستاذ الكبير

أحمد مصطفى المراغي

أستاذ الشريعة الإسلامية واللغة العربية
بكلية دار العلوم سابقا

الجزء العاشر

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر

الطبعة الأولى
١٣٦٥ هـ — ١٩٤٦ م

الجزء العاشر

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُم مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ، وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ ، وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَـكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَا مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ ، وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَـكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ ، إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ ، لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ، وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤)

بسم الله الرحمن الرحيم

شرح المفردات

الغُنْم والمغنم والغنيمة : ما يناله الإنسان ويظفر به بلا مقابل مادى ، وقولهم الغُرْمُ بالغُنْم : أى يقابل به، والفئ : كل ما صار إلى المسلمين من أموال أهل الشرك بعد أن تضع الحرب أوزارها ، وتصير الدار دار إسلام ، وهو لكافة المسلمين ، وليس فيه الخمس ، والنفَل : ما يحصل للانسان من الغنيمة قبل قسمتها .

المعنى الجملى

لما أمر الله بقتال الكفار المعتدين الذين كانوا يفتنون المسلمين عن دينهم حتى لا تكون فتنة ، ووعد المؤمنين بالنصر عليهم ، وكان ذلك مستتبعا لأخذ الغنائم منهم ــ ناسب أن يذكر بعده مايرضيه سبحانه فى قسمة الغنائم على الوجه الذى شرعه. والجمهور على أن هذه الآية نزلت فى غزوة بدر ، وعلى أن ابتداء فرض قسمة الغنائم كان بها .

الإيضاح

(واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه ، وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى واعلموا أيها المؤمنون أن كل ما غنمتموه من الكفار المحاربين ، فاجعلوا أوّلا خمسه لله تعالى ينفق فيما يرضيه من مصالح الدين العامة كالدعوة للاسلام ، وإقامة شعائره وعمارة الكعبة وكسوتها ، ثم أعطوا للرسول منه كفايته لنفسه ونسائه مدة سنة ، ثم أعطوا منه ذوى القربى من أهله وعشيرته

نسباً وولاء ، وقد خص الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك ببنى هاشم و بنى أخيه المطلب المسلمين ، دون بنى عبد شمس ونوفل ، ثم المحتاجين من سائر المسلمين ، وهم اليتامى والمساكين وابن السبيل .

روى البخارى عن مُطعم بن جُبير (من بنى نَوْفل) قال : مشيت أنا وعثمان ابن عفان (من بنى عبد شمس) إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلنا : يا رسول الله أعطيت بنى المطلب وتركتنا ونحن وهم بمنزلة واحدة . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إنما بنو المطلب وبنو هاشم شىء واحد .

وسرّ هذا أن قريشا لما كتبت الصحيفة وأخرجت بنى هاشم من مكة وحصرتهم فى الشِّعْب لحمايتهم له صلى الله عليه وسلم دخل معهم فيه بنو المطلب ولم يدخل بنو عبد شمس ولا بنو نوفل - إلى ما كان من عداوة بنى أمية بن عبد شمس لبنى هاشم فى الجاهلية والإسلام ، فقد ظل أبو سفيان يقاتل النبى صلى الله عليه وسلم ويؤلّب عليه المشركين وأهل الكتاب إلى أن أظفر الله رسوله ودانت له العرب بفتح مكة ، وكذلك بعد الإسلام خرج معاوية على علىّ وقاتله .

والحكمة فى تقسيم الخمس على هذا النحو - أن الدولة التى تدير سياسة الأمة لابد لها من المال لتستعين به على القيام بالمصالح العامة كشعائر الدين والدفاع عن الأمة ، وهو ما جعل لله فى الآية ، ثم نفقة رئيس حكومتها ، وهو سهم الرسول فيها ، ثم ما كان لأقوى عصبته وأخلصهم له وأظهرهم تمثيلا لشرفه وكرامته وهو سهم ذوى القربى ، ثم ما يكون لذوى الحاجات من ضعفاء الأمة ، وهم الباقون .

ولايزال هذا الاعتبار مراعى معمولا به فى كثير من الدول مع اختلاف شئون الاجتماع والمصالح العامة ، فالمال الذى يرصد للمصالح العامة يدخل فى موازين الوزارات المختلفة مابين جهرية وسرية ، ولاسيما الأمور الحربية ، وكذلك راتب ممثل الدولة من ملك أو رئيس جمهورية منه ما هو خاص بشخصه ، ومنه ما هو لأسرته وعياله ، ومن موازين الدولة ما يبذل لإعانة الجماعات الخيرية والعلمية ونحوها .

ولكن اليتامى والمساكين وابن السبيل لا تجعل لهم الدول فى هذا العصر حقًّا فى أموال الدولة ، وإن كان بعض الدول يعطيهم أموالا من الأوقاف الخيرية التى تتولى أمر استغلالها وإنفاق ريعها على المستحقين له ، وبعضها يخصص إعانات للعمال المتعطلين فى وقت الحاجة فقط .

وعن ابن عباس أنه قال (فأن لله خمسه) مفتاح كلام أى إنه ذكر على سبيل التبرك ، وإنما أضافه سبحانه إلى نفسه ، لأنه هو الحاكم فيه فيقسمه كيف شاء ، وليس المراد منه أن لله سهما مفرداً ، لأن ما فى السموات والأرض فهو لله ، وبهذا قال الحسن وقتادة وعطاء وإبراهيم النخعى ، فقد قالوا سهم الله وسهم رسوله واحد ، وذكر الله للتعظيم .

(إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان) أى إن كنتم آمنتم بما ذكر إيمان إذعان ، فاعلموا أن ما غنمتم من شىء قلّ أو كثر فأن لله خمسه ، لأنه هو مولاكم وناصركم ، وللرسول الذى هداكم به وفضلكم على غيركم ، واقطعوا الأطماع عنكم ، وارضوا بحكم الله فى الغنائم ، وبقسمة رسوله فيها .

ويوم الفرقان هو اليوم الذى فرق الله فيه بين الإيمان والكفر وهو يوم بدر الذى التقى فيه الجمعان جمع المؤمنين وجمع المشركين فى الحرب والنزال ، وقد كان ذلك لسبع عشرة خلت من شهر رمضان ، وهو أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(والله على كل شىء قدير) ومن قدرته أن نصركم على قلتكم وجوعكم وضعفكم على ثلاثة أضعاف عددكم أو أكثر ، وأيد رسوله وأنجز وعده له .

(إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى) العدوة (مثلثة العين) جانب الوادى ، والدنيا مؤنث الأدنى وهو الأقرب ، والقصوى مؤنث الأقصى وهو الأبعد .

والمعنى — إن كنتم آمنتم بالله وبما أنزلنا على عبدنا فى ذلك اليوم فى الوقت الذى كنتم مرابطين فيه بأقرب الجانبين من الوادى إلى المدينة ، وفيه نزل المطر

لا فى غيره ، والأعداء فى الجانب الأبعد عنها ولا ماء فيه ، وأرضه رخوة تسوخ فيها الأقدام .

(والركب أسفل منكم) أى والعير التى خرج المسلمون للقائها فى مكان أسفل من مكانكم وهو ساحل البحر كما تقدم ، إذ كان أبو سفيان قادما بها من الشام .

(ولو تواعدتم لاختلفتم فى الميعاد) أى ولو تواعدتم أنتم وهم القتال وعلمتم مالهم وما لكم لا ختلفتم فى الميعاد ، كراهة للحرب لقلتكم ، وعدم إعداد العُدّة لها ، وانحصار همكم فى العير ، و يأسا من الظفر عليهم ، ولأن غرض الأكثرين منهم كان إنقاذ العير دون القتال ، لأنهم كانوا يهابون قتال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا يأمنون نصرالله له ، لأن كفرالكثيرين منهم به كان استكبارا وعنادا لااعتقادا .

(ولكن ليقضى الله أمرا كان مفعولا) أى ولكن تلاقيتم على غير موعد ولا رغبة فى القتال ليقضى الله أمرا كان فى علمه وحكمته أنه واقع لامحالة ، وهو القتال المفضى إلى خزيهم ونصركم عليهم ، وصدق وعده لرسوله ، و إظهار دينه على الدين كله ولو كره المشركون .

(ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حىّ عن بينة) البينة الحجة الظاهرة ، أى فعل ذلك ليترتب على قضاء هذا الأمر أن يهلك من الكفار من هلك عن حجة بينة مشاهدة بالبصر ، على حقية الاسلام ، بإنجاز وعده لرسوله ومن معه من المؤمنين ، بحيث تنتفى الشبهة ، ولا يكون هناك مجال للاعتذار عند الله عن إجابة الدعوة ، و يعيش من يعيش من المؤمنين عن حجة شاهدها وعاينها ، فيزداد يقينا بالإيمان ونشاطاً فى الأعمال .

(و إن الله لسميع عليم) لا يخفى عليه شىء من أقوال الكافرين والمؤمنين ، ولا من عقائدهم وأفعالهم ، فهو يسمع ما يقول كل فريق منهم من الأقوال الصادرة عن عقيدة ، والأعذار التى يعتذر بها عن تقصيره فى أعماله ، و يعلم ما يكنّه من ذلك ومن غيره ، و يجازى كلا على حسب ما يسمع و يعلم

والخلاصة — إن غزوة بدر قامت بها الحجة البالغة للمؤمنين بنصرهم كما بشرهم النبى صلى الله عليه وسلم ، وحجته البالغة على الكافرين بخذلانهم وانكسارهم كما أنذرهم الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولا مجال فى ذلك للمكابرة والتأويل .

(إذ يريكهم الله فى منامك قليلا) أى إنه تعالى سميع لما يقول أصحابك ، عليم بما يضمرونه ، إذ يريك الله عدد عدوك وعدوهم قليلا فى الرؤيا المنامية ، فتخبر بها المؤمنين ، وتطمئن قلوبهم ، وتقوى آمالهم بالنصر ، فيجترئون عليهم .

(ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر) أى ولو أراك ربك عدوك وعدوهم كثيرا لفشل أصحابك وخافوا ولم يقدروا على حرب القوم ، ولوقع بينهم النزاع وتفرق الآراء فى أمر القتال ، إذ منهم القوى الإيمان والعزيمة ، فيطيع الله ورسوله ويقاتل ، ومنهم الضعيف الذى يثبط عن القتال بمثل الأعذار التى جادلوا بها الرسول صلى الله عليه وسلم كما تقدم فى قوله « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ » .

(ولكن الله سلم) أى ولكن الله سلمكم من الفشل والتنازع وتفرق الآراء ، وما يعقب ذلك من الانكسار والخذلان .

(إنه عليم بذات الصدور) أى إنه تعالى عليم بما تخفيه الصدور من شعور الجبن والجزع الذى تضيق به فتحجم عن القتال ، ومن شعور الإيمان والتوكل الذى يبعث فى النفس الطمأنينة والصبر فيحملها على الإقدام ، ويسخر لكل منهما الأسباب التى تفضى إلى ما يريده منها .

(وإذ يريكموهم إذ التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمراً كان مفعولا) الخطاب هنا للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أى وفى الوقت الذى يريكم الله الكافرين عند التلاقى معهم عدداً قليلا ، بما أودع فى قلوبكم من الإيمان بوعد الله بنصركم وبتثبيتكم بملائكته والاستهانة بهم ، ويقللكم فى أعينهم لقلتكم بالفعل ، ولما كان عندهم من عجب وغرور بأنفسهم حتى لقد قال أبو جهل : إنما أصحاب محمد أكلة جزور (أى لقلتهم يكفيهم جزور واحد فى اليوم) .

والخلاصة — إنه فعل ذلك ليقدم كل منكم على قتال الآخر ، فهذا واثق بنفسه مدلّ ببأسه ، وهذا متكل على ربه ، واثق بوعده ، حتى إذا ما التقيتم ثبتكم وثبطهم ، ليقضى بنصركم عليهم أمراً كان فى علمه مفعولا ، وهو أن تكون كلمة الله هى العليا ، وكلمة الذين كفروا السفلى ، ومن ثم هيأ الأسباب وقدرها تقديراً .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ، وَاصْبِرُوا إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه نعمه على رسوله وعلى المؤمنين يوم بدر — قفى على ذلك بذكر أدبين عظيمين إذا التقوا بعدوهم :

(١) الثبات وتوطين النفس على اللقاء مع عدم التوانى والتكاسل .

(٢) ذكر الله كثيرا وهو ذكره بألسنتهم وقلوبهم ، تنبيها إلى أن الإنسان يجب ألا يخلو قلبه من ذكره فى أشد الأوقات حرجا . وقد طلب إلينا الثبات والطاعة لله ورسوله حتى لا نفشل وتدول علينا الدولة .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا) أى إذا لقيتم فئة من أعدائكم الكفار فاثبتوا لهم ولا تفروا أمامهم ، فإن الثبات قوة معنوية طالما كانت السبب فى النصر والغلب بين الأفراد والجيوش ، انظر إلى الرجلين الجلدين يتصارعان فيعيا كل منهما وتضعف قوته ، ويتوقع كل لحظة أن يقع صريعا ، ولكن قد يخطر له أن خصمه

ربما وقع قبله فيثبت إلى اللحظة الأخيرة ، فيكون له الفلج والفوز على خصمه ، وهكذا فى الحروب ، فإن من أهم أسباب النصر فيها الثبات وعدم اليأس ، بل الثبات نافع فى كل أعمال البشر ، فهو الوسيلة فى الفوز والنجاح فيها .

(واذكروا الله كثيرا) أى وأكثروا من ذكر الله فى أثناء القتال فى قلوبكم ، بذكر قدرته ووعده بنصر رسله والمؤمنين ونصر كل من يتبع سنتهم بنصر دينه وإقامة سننه ، وبأن النصر بيده ومن عنده يؤتيه من يشاء ، وبألسنتكم بالتكبير ونحوه ، وبالدعاء والتضرع إليه مع اليقين بأنه لا يعجزه شىء .

(لعلكم تفلحون) أى إن الثبات وذكر الله هما وسيلتان من وسائل الفوز ؛ ويعدان للفلاح فى القتال فى الدنيا ، وفى نيل الثواب فى الآخرة .

وفى ذلك إيماء إلى أنه يجب على العبد ألا يفتر عن ذكر الله أكثر ما يكون هما ، وأشغل ما يكون قلبا ، وأن تكون نفسه مجتمعة لذلك وإن كانت متوزعة عن غيره .

(وأطيعوا الله ورسوله) أى وأطيعوا الله فيما أمركم به من الأسباب الموجبة للفلاح فى القتال وفى غيره ، وأطيعوا رسوله كذلك ، فهو المبين لكلام ربه ، والمنفذ له بالقول والعمل والحكم ، وهو القائد الأعظم فى القتال ، فطاعته هى جماع النظام ، والنظام ركن من أركان الظفر ، وهو المشارك لكم فى الرأى والتدبير والاستشارة فى الأمور

(ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم) أى لا يكن منكم تنازع واختلاف ، فإن ذلك مدعاة للفشل والخيبة وذهاب القوة ، فيتغلب عليكم العدو .

وأصل الريح الهواء المتحرك ثم استعيرت للقوة والغلبة ، لأنه لا يوجد فى الأجسام ما هو أقوى منها ، فهى تهيج البحار وتقتلع الأشجار وتهدم الدور والقلاع ، ومن ثم يقال هبت رياح فلان إذا جرى أمره على ما يريد ، كما يقال : ركدت رياحه إذا ضعف أمره وولت دولته .

(واصبروا إن الله مع الصابرين) أى واصبروا على الشدائد وعلى ما تلاقونه من بأس العدو واستعداده وكثرة عدده ، فالله مع الصابرين يمدهم بمعونته وتأييده ، ومن كان الله معينا له فلا يغلبه غالب .

وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ ، وَاللهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لاَ غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَكُمْ ، فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّى بَرِىءٌ مِنْكُمْ إِنِّى أَرَى مَالاَ تَرَوْنَ إِنِّى أَخَافُ اللهَ وَاللهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هٰؤُلاَءِ دِينُهُمْ ، وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَإِنَّ اللهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩)

شرح المفردات

الذين خرجوا : هم أهل مكة حين خرجوا لحماية العير ، والبطر : إظهار الفخر والاستعلاء بنعمة القوة أو الغنى أو الرياسة ، و يعرف ذلك فى الحركات المتكلفة والكلام الشاذ ، والرئاء : أن يعمل المرء ما يحب أن يراه الناس منه ليثنوا عليه و يعجبوا به ، وتراءت الفئتان: قرب كل منهما من الآخر وصار بحيث يراه و يعرف حاله ، ونكص: رجع القهقرى وتولى إلى الوراء ، والمنافق : من يظهر الإسلام و يسر الكفر ، والذين فى قلوبهم مرض : هم ضعاف الإيمان تملأ قلوبهم الشكوك والشبهات ، فتزلزل اعتقادهم حينا وتسكن حينا آخر .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه عباده المؤمنين بما أمر به من جلائل الصفات ومحاسن الآداب التى تكون سبب الظفر فى القتال ، ونهاهم عن التنازع ـ قفّى على ذلك بنهيهم عما كان عليه مشركو قريش حين خرجوا لحماية العِير من البطر والكبرياء والصد عن سبيل الله .

الإيضاح

(ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطرا ورئاء الناس) أى عليكم أن تمتثلوا ما أمرتم به وتنتهوا عما نهيتم عنه ، ولا تكونوا كأعدائكم المشركين الذين خرجوا من ديارهم فى مكة وغيرها من الأماكن التى استنفرهم منها أبو سفيان بطرين بما أوتوا من قوة ونعم لا يستحقونها ، مرائين الناس بها ليعجبوا بها ويثنوا عليهم بالغنى والقوة والشجاعة .

(ويصدون عن سبيل الله) أى وهم بخروجهم يصدون عن سبيل الله وهو الإسلام بحملهم الناس على عداوة الرسول صلى الله عليه وسلم ، والإعراض عن تبليغ دعوته ؛ وتعذيب من أجابها إذا لم يكن لهم من يمنعهم ويحميهم من قرابة أو حلف أو جوار .

(والله بما يعملون محيط) أى والله عليم بما جاءوا لأجله ، ومن ثم فهو يجازيهم عليه فى الدنيا والآخرة بمقتضى سننه فى ترتيب الجزاء على الأعمال وصفات النفوس .

وفى هذا زجر وتهديد عن الرياء والتصنع والبطر والكبرياء ، وأنه سيجازى عليها أشد الجزاء .

قال البغوى : نزلت فى المشركين حين أقبلوا إلى بدر ولهم بغى وفخر ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادّك

وتكذب رسولك ، اللهم فنصرك الذى وعدتنى » قالوا ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش : إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ، فقد نجاها الله فارجعوا، فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى يرد بدرا ــ وكان موسما من مواسم العرب يجتمع لهم بها سوق كل عام ــ فنقيم ثلاثا فننحر الجزور ونطعم الطعام ونسقى الخمر وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدا ، فوافوها فسقوا كئوس المنايا مكان الخمر ، وناحت عليهم النوائح مكان القيان .

فنهى الله عباده المؤمنين أن يكونوا مثلهم وأمرهم بإخلاص النية والحِسبة فى نصر دينه ومؤازرة رسوله صلى الله عليه وسلم .

(وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم) أى واذكر أيها الرسول للمؤمنين حين زين الشيطان لهؤلاء المشركين أعمالهم بوسوسته ، وقال لهم بما ألقاه فى رُوعهم ، وخيل إليهم أنهم لا يغلبون لكثرة عددهم وعُددهم ، وأوهمهم أن اتباعهم إياه فيما يظنون أنها قربات ، مجير لهم حتى قالوا : اللهم انصر أهدى الفئتين وأفضل الدينيين .

(فلما تراءت الفئتان نكص على عقبيه) أى فلما قرب كل من الفريقين المقاتلين من الآخر وصار بحيث يراه ويعرف حاله ، وقبل أن يصطلى نار القتال معه ــ نكص على عقبيه أى رجع القهقرى وتولى إلى الوراء وهى الجهة التى فيها العقبان ، والمراد أنه كف عن تزيينه لهم وتغريره بهم .

(وقال إنى برىء منكم إنى أرى مالا ترون إنى أخاف الله) أى تبرأ منهم وأيس من حالهم لما رأى إمداد الله تعالى المسلمين بالملائكة .

(والله شديد العقاب) قد تكون هذه العبارة من كلام الشيطان ، وقد تكون من كلامه تعالى .

والخلاصة ـــ إن جند الشيطان كانوا منبثين فى المشركين يوسوسون لهم بملابستهم لأرواحهم الخبيثة بما يُغريهم ويغرهم ، كما كان الملائكة منبثين فى المؤمنين يلهمونهم

بملابستهم لأرواحهم الطيبة ما يثبتون به قلوبهم ويزيدهم ثقة بوعد الله بنصرهم ، فلما تراءت الفئتان وأوشكا أن يتلاحما فر الشيطان بجنوده من بين المشركين ، لئلا تصل إليهم الملائكة الملابسة للمؤمنين (وهما ضدان لا يجتمعان ، ولو اجتمعا لقضى أقواهما وهم الملائكة على أضعفهما وهم الشياطين) .

فخوف الشيطان إنما كان من إحراق الملائكة لجنوده لا على المشركين ، كما يقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق متلاش أمامه لا يبقى منه شيء .

(إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم) أى وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم حين يقول المنافقون ومن فى حكمهم من مرضى القلوب : ما حمل هؤلاء المؤمنين على الإقدام على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم - إلا غرورهم بدينهم ، ولا غرو أن تصدر هذه المقالة ممن حرم الإيمان الكامل والثقة بالله والتوكل عليه .

روى عن مجاهد أنه قال : هم فئة من قريش ، قَيْسُ بن الوليد بن المغيرة والحرث ابن زَمْعَةَ بن الأسود بن المطّلب ويعلى بن أمية والعاص بن منبه ، خرجوا مع قريش من مكة وهم على الارتياب فحبسهم ارتيابهم ، فلما رأوا قلة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا : غر هؤلاء دينهم حتى أقدموا على ما أقدموا عليه مع قلة عددهم وكثرة عدوهم .

(ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم) أى ومن يكل أمره إلى الله ويؤمن إيمان اطمئنان بأنه ناصره ومعينه ، وأنه لا يعجزه شيء ولا يمتنع عليه شيء أراده - يكفه ما يهمه وينصره على أعدائه وإن كثر عددهم وعظم استعدادهم ، لأنه العزيز الغالب على أمره ، الحكيم الذى يضع كل أمر فى موضعه بمقتضى سننه فى نظام العالم ، ومن ذلك أن ينصر الحق على الباطل .

وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤)

شرح المفردات

أدبارهم ، أى ظهورهم وأقفيتهم ، وعذاب الحريق : عذاب النار بعد البعث ، والدأب : العادة المستمرة .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه حال هؤلاء الكفار من خروجهم إلى قتال المؤمنين بطرا ورئاء الناس ، ومن تزيين الشيطان لهم أعمالهم ـ قفى على ذلك بذكر أحوالهم حين موتهم و بيان العذاب الذى يصل إليهم فى ذلك الوقت .

الإيضاح

(ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم وذوقوا عذاب الحريق) أى لو عاينت أيها الرسول حال الكفار حين يتوفاهم الملائكة ،

فينزعون أرواحهم من أجسادهم ضار بين وجوههم وأقفيتهم ، قائلين لهم : ذوقوا عذاب النار الذى كنتم به تكذبون (وهذا الضرب والكلام من عالَم الغيب ، فلا يقتضى أن يراه الذين يحضرون وفاتهم ، ولا أن يسمعوا كلامهم حين يقولون ذلك لهم) لو رأيت ذلك لرأيت أمرا عظيما هائلا يرد الكافر عن كفره ، والظالم عن ظلمه إذا هو علم عاقبة أمره .

وقد روى أن ضرب الوجوه والأدبار كان ببدر ، كان المؤمنون يضربون من أقبل من المشركين من وجوههم والملائكة يضربونهم من أدبارهم .

(ذلك بما قدمت أيديكم) أى هذا العذاب الذى ذقتموه بسبب ما كسبت أيديكم من سيء الأعمال فى حياتكم الدنيا من كفر وظلم ، وهذا يشمل القول والعمل .

ونسب ذلك إلى الأيدى وإن كان قد يقع من الأيدى والأرجل وسائر الحواس أو بتدبير العقل ، من أجل أن العادة قد جرت بأن أكثر الأعمال البدنية تزاول بها .

(وأن الله ليس بظلام للعبيد) أى وبأن الله لا يظلم أحدا من عبيده ، فلا يعذب أحدا منهم إلا بجرْم اجترمه ، ولا يعاقبه إلا بمعصيته إياه ، وقد وقع ذلك منكم ، فأنتم الظالمون لأنفسكم فلوموها ، ولا لوم إلا عليها . روى مسلم عن أبى ذرّ عن النبى صلى الله عليه وسلم : « أن الله يقول يا عبادى إنى حرمت الظلم على نفسى وجعلته بينكم محرّما ، فلا تظالموا ؛ يا عبادى إنما هى أعمالكم أحصيها لكم ، فمن وجد خيرا فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلا نفسه » .

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم) أى فِعْل هؤلاء المشركين من قريش الذين قتلوا ببدر كعادة قوم فرعون وفعلهم وفعل من قبلهم من الأمم الخالية ، كفروا بآيات ربهم فأخذهم بذنوبهم أخذ عزيز مقتدر ، ولم يظلم أحدا منهم مثقال ذرة ، ونصر رسله والمؤمنين .

وكما كانت سنته تعالى فى أولئك أن أخذهم بذنوبهم ، فسنته فى هؤلاء كذلك فقد نصر رسوله والمؤمنين فى بدر ، وأهلك هؤلاء بذنوبهم .

(إن الله قوى شديد العقاب) أى إن الله قوىّ لا يغلبه غالب ، ولا يفوته هارب ، شديد العقاب لمن استحق عقابه وكفر بآياته وجحد حججه ، وقد جعل لكل شىء أجلا .

روى البخارى ومسلم وابن ماجة عن أبى موسى الأشعرى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تعالى ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يُفْلِته » .

(ذلك بأن الله لم يك مغيّرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) أى ذلك الذى ذكر من أخذه لقريش بكفرها بنعم الله عليها ، إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، فكذبوه وأخرجوه من بينهم وحاربوه ، كأخذه للأمم قبلهم بذنوبهم - فقد جرت سنة الله ألا يغير نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم من الأحوال التى استحقوا بها تلك النعمة .

وفى الآية إيماء إلى أن نعم الله على الأمم والأفراد منوطة ابتداء ودواما بأخلاق وصفات وأعمال تقتضيها ، فما دامت هذه الشئون ثابتة لهم متمكنة منهم ، كانت تلك النعم ثابتة لهم ، والله لا ينتزعها منهم بغير ظلم منهم ولا جُرم ، فإذا هم غيروا ما بأنفسهم من تلك العقائد والأخلاق وما يلزم ذلك من محاسن الأعمال ، غيّر الله حالهم وسلب نعمتهم منهم فصار الغنى فقيرا والعزيز ذليلا والقوى ضعيفا .

وليست سعادة الأمم وقوتها وغلبتها منوطة بسعة الثروة ولا كثرة العدد كما كان يظن بعض المشركين وحكاه الله عنهم بقوله « وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوالاً وأَوْلاَدًا ومَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ » .

وكذلك لا يحابى الله تعالى بعض الشعوب والأمم بنسبها وفضل بعض أجدادها على غيرهم بنبوّة أو مادونها فيؤتيهم الملك والسيادة لأجل الأنبياء الذين ينسبون إليهم كما كان شأن بنى إسرائيل فى غرورهم وتفضيل أنفسهم على جميع الشعوب

بنسبهم ، وهكذا شأن النصارى والمسلمين من بعدهم ، إذ اتبعوا سنتهم واغتروا بدينهم وإن كانوا من أشد المخالفين له .

(وإن الله لسميع عليم) أى إنه تعالى سميع لما يقول مكذبو الرسل، عليم بما يأتون وما يذرون ، وهو مجازيهم على ما يقولون ويعملون إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر .

(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كذبوا بآيات ربهم فأهلكناهم بذنوبهم وأغرقنا آل فرعون وكلٌّ كانوا ظالمين) أى حتى يغيروا ما بأنفسهم تغييرا مماثلا لدأب آل فرعون ، فهم قد كذبوا كما كذب أولئك فحل بهم مثل ما حل بأولئك السابقين .

والدأب الأول فى بيان كفرهم بجحد ما قامت عليه أدلة الرسل من وحدانية الله ووجوب إفراده بالعبادة ، وفى تعذيب الله إياهم فى الآخرة ، فهو دأب وعادة فيما يتعلق بحقه تعالى من حيث ذاته وصفاته ، وفى الجزاء الدائم على الكفر به الذى يبتدئ بالموت وينتهى بدخول النار .

والدأب الثانى فى تكذيبهم بآيات ربهم ونعمه من حيث إنه هو المربى لهم ، ويدخل فى ذلك تكذيب الرسل وعنادهم وإيذاؤهم وكفر النعم المتعلقة ببعثتهم ، وفى الجزاء على ذلك بتغيير حالهم وعذابهم فى الدنيا .

وخلاصة ذلك — إن ما دوّنه التاريخ من دأب الأمم وعادتها فى الكفر والتكذيب والظلم فى الأرض ، ومن عقاب الله اياها ـ جار على سننه تعالى المطردة فى الأمم ، ولا يظلم ربك أحدا بسلب نعمة منهم ولا بإيقاع أذى بهم ، وإنما عقابه لهم أثر طبيعى لكفرهم وظلمهم لأنفسهم .

وأما عذاب الاستئصال بعذاب سماوى فهو خاص بمن طلبوا الآيات من الرسل وأنذروهم العذاب إذا هم كفروا بها بعد مجيئها ثم فعلوا ذلك .

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لاَ يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا

تَثْقَفَنَّهُمْ فِى الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا ، إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) .

شرح المفردات

الدابة : لفظ غلب استعماله فى ذوات الأربع ، وأصله كل ما دب على وجه الأرض ، وهو المراد هنا ، عند الله : أى فى حكمه وعلمه ، والذين عاهدت منهم : هم طوائف من يهود المدينة ، وثقفه : أدركه وظفر به ، فشرّد بهم : أى نكل بهم تنكيلا يشرد غيرهم من ناقضى العهد ، ومن خلفهم: هم كفار مكة وأعوانهم من مشركى القبائل الموالية لهم ، والنبذ : الطرح ، على سواء : أى على طريق واضح لا خداع فيه ولا خيانة ولا ظلم ، سبقوا : أى أفلتوا من الظفر بهم ، لا يعجزون : أى لا يجدون الله عاجزا عن إدراكهم ، بل سيجزيهم على كفرهم .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال مشركى قريش فى قتالهم له ببدر — قفّى على ذلك بذكر حال فريق آخر من الكفار الذين عادوا النبى صلى الله عليه وسلم وقاتلوه وهم اليهود الذين كانوا فى بلاد الحجاز .

قال سعيد بن جبير : نزلت هذه الآيات فى ستة رهط من اليهود منهم ابن تابوت ، وقال مجاهد : نزلت فى يهود المدينة وكان زعيمهم الطاغوت كعب بن الأشرف ، وهو فيهم كأبى جهل فى مشركى مكة ، ثم ذكر سبحانه ما يجب أن يعمل مع أمثالهم من الخونة ، وبيّن أن الرسول آمن من عاقبة كيدهم ومكرهم .

الإيضاح

(إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون) أى إن شر ما يدب على وجه الأرض فى حكم الله وعدله هم الكافرون الذين اجتمعت فيهم صفتان :

(١) الإصرار على الكفر والرسوخ فيه بحيث لا يرجى إيمان جملتهم أو إيمان جمهورهم ، لأنهم إما رؤساء حاسدون للرسول صلى الله عليه وسلم معاندون له جاحدون بآياته المؤيدة لرسالته على علم منهم ، وفيهم يقول سبحانه : « يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ » . وإما مقلدون جامدون على التقليد لا ينظرون فى الدلائل والآيات .

وقد لقبهم الله بالدواب وهو اللفظ الذى غلب استعماله فى ذوات الأربع ، لإفادة أنهم ليسوا من شرار البشر فقط ، بل هم أضل من العجماوات ، لأن لها منافع وهؤلاء لا خير فيهم ولا نفع لغيرهم منهم كما قال تعالى فى أمثالهم : « أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ؟ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا » .

(٢) نقض العهد ، وقد كان النبى صلى الله عليه وسلم عقد مع يهود المدينة عقب هجرته إليهم عهدا أقرهم فيه على دينهم وأمّنهم على أنفسهم وأموالهم ، فنقض كل منهم عهده .

روى عن ابن عباس أنهم بنو قريظة نقضوا عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وأعانوا عليه بالسلاح فى يوم بدر ثم قالوا : نسينا وأخطأنا ، فعاهدهم الثانية فنقضوا العهد ومالئوا الكفار على رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الخندق وركب زعيمهم كعب بن الأشرف إلى مكة فحالفهم على محاربة النبى صلى الله عليه وسلم .

وقوله : وهم لا يتقون ، أى لا يتقون الله فى نقض العهد ولا فيما قد يترتب عليه من قتالهم والظفر بهم .

وبعد أن بين سبحانه أنهم قد تكرر منهم نقض العهد ـ أردف ذلك بذكر ما يجب أن يعاملوا به فقال :

(فإما تثقفنهم فى الحرب فشرد بهم من خلفهم) أى إنك إن تدرك هؤلاء الناقضين لعهدهم وتظفر بهم فى الحرب ـ فنكل بهم أشد التنكيل حتى يكون ذلك سببا لشرود من وراءهم من الأعداء وتفرقهم ، فيكون مثلهم مثل الإبل الشاردة النادّة عن أمكنتها .

وإنما أمر الله رسوله صلى الله عليه وسلم بالإثخان فى هؤلاء الأعداء الذين تكررت مسالمته لهم وتجديده لعهدهم بعد نقضه ، لئلا ينخدع مرة أخرى بكذبهم ، لما جبل عليه من الرحمة وحب السلم واعتبار الحرب ضرورة تترك إذا زال سببها كما قال تعالى: « وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا » وهم قد أوهموه المرة بعد المرة أنهم يرغبون فى السلم واعتذروا عن نقضهم العهد وكانوا فى ذلك مخادعين .

(لعلهم يذكرون) أى لعل من خلفهم من الأعداء يذكّرون النكال فيمنعهم ذلك من نقض العهد ومن القتال .

روى البخارى ومسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فى بعض أيامه التى لقى فيها العدو فقال : « أيها الناس لا تمنوا لقاء العدو وسلوا الله العافية ، فإذا لقيتموهم فاصبروا واعلموا أن الجنة تحت ظلال السيوف ـ ثم قال : اللهم منزل الكتاب ، ومجرى السحاب ، وهازم الأحزاب ، اهزمهم وانصرنا عليهم » .

وفى ذلك إيماء إلى شيئين :

(١) إن الحرب ليست محبوبة عند الله ولا عند رسوله ، وإنما هى ضرورة يراد بها منع البغى والعدوان وإعلاء كلمة الحق ودحض الباطل : « فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً ، وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ » .

(٢) إن استعمال القسوة مع الناقضين للعهد والبادئين بالحرب والتنكيل بهم لتشريد من وراءهم ـ أمر لابد منه للعظة والاعتبار حتى لايعودوا إلى مثلها هم ولاغيرهم.

ولا يزال الأمر كذلك فى هذا العصر ، وإن كانوا يريدون به الانتقام وشفاء ما فى الصدور من الأحقاد ، والتمتع بالمغانم من مال وعقار .

وبعد أن ذكر حكم ناقضى العهد حين سنوح الفرصة ـ قفى على ذلك بحكم من لاثقة بعهودهم فقال :

(وإما تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء) أى وإن توقعت من قوم معاهدين خيانة ونكثا للعهد بوجود أمارات ظاهرة وقرائن تنذر بها ، فاقطع عليهم طريق الخيانة قبل وقوعها بأن تنبذ عهدهم إليهم وتنذرهم بأنك غير مقيد به ولا مهتمّ بأمرهم ، بطريق واضح لا خداع فيه ولا استخفاء .

والحكمة فى هذا أن الإسلام لايبيح الخيانة مطلقا .

وخلاصة ذلك — لا تحاربهم قبل أن تعلمهم أنك قد فسخت العهد الذى بينك وبينهم حتى تكون أنت وهم فى العلم بنقض العهد سواء ، فلا يتوهموا أنك نقضت العهد بنصب الحرب عليهم .

(إن الله لايحب الخائنين) أى إن الخيانة مبغوضة بجميع ضروبها ، ولا وسيلة لاتقاء ضررها من الكفار إذا ظهرت أماراتها إلا بنبذ عهدهم جهرة .

روى البيهقى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « ثلاثة المسلم والكافر فيهن سواء ـ من عاهدته فوفّ بعهده ، مسلما كان أو كافرا ، فإنما العهد لله ؛ ومن كانت بينك وبينه رحم فصلها ، مسلما كان أو كافرا ؛ ومن ائتمنك على أمانة فأدها إليه ، مسلما كان أو كافرا » .

وبعد هذا أنذر أولئك الخائنين ما سيحل بهم من عقاب فقال :

(ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا) أى لايحسبن الذين كفروا أنهم سبقونا ونجوا من عاقبة خيانتهم وشرهم ، ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ أَنْ يَسْبِقُونَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ » .

(إنهم لا يعجزون) أى إنهم لا يعجزون الله تعالى ولا يفوتونه بمكرهم وخيانتهم

بل هو سيجزيهم ويمكّن منهم فى الدنيا بتسليط رسوله والمؤمنين عليهم وإذاقتهم عاقبة كيدهم، والآية بمعنى قوله تعالى : « وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللهِ، وَأَنَّ اللهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ » .

وخلاصة ذلك — قطع أطماعهم فى الانتفاع بهذا النبذ والغلبة على المؤمنين .

وفى الآية إيماء إلى أن ما أوجبه الإسلام من المحافظة على العهود مع الأعداء المخالفين فى الدين ، وماحرّمه من الخيانة فيها ــ لم يكن عن ضعف ولا عن عجز ، بل عن قوة وتأييد إلهى ، فقد نصر الله رسوله والمؤمنين على اليهود الخائنين الناقضين لعهودهم ، وأجلى من أبقاه السيف منهم من جوار معقل الإسلام (شبه جزيرة العرب).

وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ ، وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لاَ تَعْلَمُونَهُمُ ، اللهُ يَعْلَمُهُمْ ، وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لاَ تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ، لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) .

شرح المفردات

الإعداد : تهيئة الشىء للمستقبل، والرباط والمِرْبط : الحبل الذى تربط به الدابة ، ورباط الخيل : حبسها واقتناؤها ، والإرهاب والترهيب : الإيقاع فى الرهبة وهى الخوف المقترن بالاضطراب ، وجنح للشىء وإليه: مال ، يقال جنحت الشمس للغروب

أى مالت إلى جانب الغرب الذى تغيب فى أفقه ، والسلم (بفتح السين وكسرها) والسلام: الصلح وضد الحرب ، والإسلام دين السلم والسلام كما قال : « يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً » وحسبك الله : أى كافيك وناصرك عليهم .

المعنى الجملى

بعد أن أبان عز اسمه فيما سلف أن اليهود الذين عقدوا العهود مع النبى صلى الله عليه وسلم وبها أمّنهم على أنفسهم وأموالهم ودينهم ـ قد خانوه ونقضوا العهود وساعدوا عليه أعداءه المشركين الذين أخرجوه من دياره ووطنه وتبعوه إلى مهجره يقاتلون فيه لأجل دينهم ، وبذلك صاروا هم والمشركون سواء ـ أردف ذلك بذكر ما يجب على المؤمنين فى معاملتهم أثناء الحرب التى أصبحت لا مناص منها بما أحدثوه من الخيانة والغدر والبداءة بالعدوان ، وذلك سنة من سنن الاجتماع البشرى ، إذ حصول الصراع بين الحق والباطل والقوة والضعف أمر لا مندوحة منه .

الإيضاح

(وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) أمر الله المؤمنين بالاستعداد للحرب التى لابد منها لدفع العدوان وحفظ الأنفس والحق والفضيلة .

ويكون ذلك بأمرين :

(١) إعداد المستطاع من القوة ، ويختلف هـذا باختلاف الزمان والمكان ، فالواجب على المسلمين فى هذا العصر : صنع المدافع والطيارات والقنابل والدبابات وإنشاء السفن الحربية والغواصات ونحو ذلك ، كما يجب عليهم تعلّم الفنون والصناعات التى يتوقف عليها صنع هذه الأشياء وغيرها من قوى الحرب .

وقد استعمل الصحابة المنجنيق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة خيبر وغيرها ، روى مسلم عن عقبة بن عامر أنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم وقد تلا هذه

الآية يقول : « ألا إن القوة الرمى » قالها ثلاثا ، وذلك أن رمى العدو عن بعد بما يقتله أسلم من مصاولته على القرب بسيف أو رمح أو حربة أو نحو ذلك ، وهذا يشمل السهم وقذيفة المنجنيق والطيارة والمدفع والبندقية ونحوها ، فاللفظ يشملها وإن لم تكن معروفة فى عصره صلى الله عليه وسلم .

(٢) مرابطة الفرسان فى ثغور البلاد وحدودها ، إذ هى مداخل الأعداء ، ومواضع مهاجمتهم للبلاد .

والحكمة فى هذا أن يكون للأمة جند دائم مستعد للدفاع عنها إذا فجأها العدوّ على غِرة ، وقِوام ذلك الفرسان لسرعة حركتهم وقدرتهم على القتال وإيصال الأخبار من الثغور إلى العواصم وسائر الأرجاء ، ومن أجل هذا عظم الشارع أمر الخيل وأمر بإكرامها ، ولا يزال للفرسان نصيب كبير فى الحرب فى هذا العصر الذى ارتقت فيه الفنون العسكرية فى الدول الحربية .

(ترهبون به عدو الله وعدوكم) أى أعدوا لهم المستطاع من القوة الحربية ومن الفرسان المرابطة لترهبوا عدو الله الكافرين به وبما أنزله على رسوله وعدوكم الذين يتربصون بكم الدوائر ، إذ لا شىء يمنع الحرب إلا الاستعداد للحرب ، فالكفار إذا علموا استعداد المسلمين وتأهبهم للجهاد واستكمالهم لجميع الأسلحة والآلات خافوهم ، وإلى هذا يشير أبو تمام إذ يقول :

وأخافكم كى تغمدوا أسيافكم ... إن الدم المغبّر يحرسه الدم

وهذا الخوف يفيد المسلمين من وجوه :

(ا) يجعل أعداءهم لا يعينون عدوا آخر عليهم .

(ب) يجعلهم يؤدون الالتزامات المطلوبة منهم .

(حـ) ربما حملهم ذلك على الدخول فى الإسلام والإيمان بالله ورسوله .

(وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم) أى وترهبون به أناسا غير هؤلاء الأعداء المعروفين لكم ، وهم مشركو مكة ومن والاهم ممن يجمعون بين هاتين

العداوتين حين نزول الآية عقب غزوة بدر — ممن لاتعلمون الآن عداوتهم بل يعلمهم الله وهو علام الغيوب .

والخلاصة — إن تكثير آلات الجهاد وأدواتها كما يرهب الأعداء الذين نعلم أنهم أعداء — يرهب الأعداء الذين لا نعلم أنهم أعداء ، فالاستعداد للحرب يرهب الأعداء ويمنعهم من الإقدام على القتال ، وهذا ما يسمى فى العصر الحديث (السلام المسلح)

(وما تنفقوا من شىء فى سبيل الله يوف إليكم) أى وما تنفقوا من شىء قليلا كان أو كثيرا فى إعداد المستطاع من القوة والمرابطة فى سبيل الله — فالله يعطيكم عليه الجزاء الوافى التام .

(وأنتم لاتظلمون) أى والحال أنه لا يلحقكم ظلم ولا اضطهاد من أعدائكم ، فإن القوىّ المستعد لمقاومة المعتدى قلما يعتدى عليه أحد ، وإن اعتدى عليه فقلّ أن يظفر به .

وفى هذا إيماء إلى أن إعداد المستطاع من القوة الحربية والمرابطة فى سبيل الله لا يمكن تحقيقهما إلا بإنفاق الكثير من المال ، ومن ثم رغب سبحانه عباده المؤمنين فى الإنفاق فى سبيله ، ووعدهم بأن كل ما ينفقون فيها يوفى إليهم إما فى الدنيا والآخرة أو فى الآخرة فحسب.

وإذ كان السلم هو المقصد الأول لا الحرب أكده بقوله :

(وإن جنحوا للسلم فاجنح لها) أى وإن مال العدو عن جانب الحرب إلى جانب السلم ولم يعتزّ بقوته فاجنح لها ، لأنك أولى بالسلم منهم .

(وتوكل على الله إنه هو السميع العليم) أى اقبل السلم وفوض الأمر إلى الله ولا تخف غدرهم ومكرهم ، فالله هو السميع لما يقولون ، العليم بما يفعلون ، فلا يخفى عليه ما يأتمرون به من الكيد والخداع وإن خفى عليك .

(وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله) أى وإن يريدوا بجنوحهم للسلم

الكيد والخداع ليفترصوا الفرص كانتظار الغِرّة التى تمكنهم من أهل الحق ، أو الاستعداد للحرب ، فالله يكفيك أمرهم وينصرك عليهم .

(هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين) أى إن من آثار عنايته بك أن أيدك بتسخير المؤمنين لك ، وجعلهم أمة متحدة متآلفة متعاونة على نصرك ، وأن سخر لك ما وراء الأسباب من خوارق العادات كالملائكة التى تثبت القلوب يوم بدر .

(وألف بين قلوبهم) أى إنه تعالى جمعهم على الإيمان بك ، وبذل النفس والمال فى مناصرتك ، بعد التفرق والتعادى الذى كان أثر حروب طويلة وضغائن موروثة كما كان بين الأوس والخزرج من الأنصار .

ونحو الآية قوله فى سورة آل عمران : « وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا » .

وقد كاد يقع شىء من التباغض بين المهاجرين والأنصار حين قسمة الغنائم فى حُنين ، فكفاهم الله شر ذلك بفضله وحكمة رسوله .

وفى الآية إيماء إلى أن النصر ينال بالأسباب التى من أهمها التآلف والاتحاد بفضل مقدر الأسباب ورحمته بالعباد ومن جرّاء ذلك قال :

(لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم) أى إنه لولا نعمة الله عليهم بأخوّة الإيمان التى هى أقوى من أخوة الأنساب والأوطان ـ لما أمكنك أن تؤلف بين قلوبهم بالمنافع الدنيوية ، فالضغائن الموروثة والدماء المسفوكة فى الأنصار لا تزول بالأعراض الزائلة ، وإنما تزول بصادق الإيمان الذى هو وسيلة السعادة فى الدنيا والآخرة ، كما أن التآلف بين أغنياء المهاجرين وفقرائهم ، وأشرافهم وعامتهم ، على ما كان بينهم من فوارق فى الجاهلية ، وجمع كلمة البيوت والعشائر مع رسوخ العداوات والإحَن ـ لم يكن مما ينال بالمال والآمال فى المغانم ونحوها ، على أن شيئا من ذلك لم يكن فى يد الرسول أول الإسلام وإن كان قد صار فى يده شىء كثير منه فى المدينة بنصر الله له فى قتال المشركين واليهود جميعا .

وكذلك جمع كلمة المهاجرين والأنصار على ما يدل به كل منهما بميزة لاتتوافر لسواه ، فالمهاجرون لهم مزية القرب من الرسول والسبق إلى الإيمان ، والأنصار لهم ميزة المال والقوة وإنقاذ الرسول وقومه من ظلم مشركى مكة وإيوائهم ومشاركتهم لهم فى أموالهم ، فكل هذا من عوامل التحاسد والتنازع لولا فضل الله وعنايته ، ومن ثم قال :

(ولكن الله ألف بينهم) إذ هداهم إلى الإيمان الذى دعوتهم إليه فتآلفت قلوبهم .

ونحو الآية قوله : « إِنَّكَ لاَ تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِى مَنْ يَشَاءُ » .

وقد دلت التجارب على أن التآلف من أقوى وسائل التعاون وأنجعها ، وأجدى وسائل التحاب والتآلف قوة الإيمان ، ومن ثم قال ابن عباس رضى الله عنهما : إن الرحم لتُقْطع ، وإن النعمة لتكفر ، وإن الله إذا قارب بين القلوب لم يزحزحها شىء ، ثم قرأ : « لو أنفقت مافى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم » الآية .

(إنه عزيز حكيم) أى إنه تعالى الغالب على أمره الذى لايغلبه خداع الخادعين ولا كيد الماكرين ، الحكيم فى أفعاله ، فينصر الحق على الباطل ، ويفضل الجنوح للسلم إذا جنح إليها العدو على الحرب .

يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ حَسْبُكَ اللهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَاأَيُّهَا النَّبِىُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ ، إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ ، وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ (٦٥) الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً ، فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللهِ ، وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) .

شرح المفردات

حسبك : أى كافيك ما يهمك ، والتحريض : الحث على الشىء ، لايفقهون : أى لايدركون حكمة الحرب وما يقصد بها من سعادة فى الدنيا والآخرة ، والضعف (بالفتح والضم) يشمل المادى والمعنوى ، وقيل هو بالضم لما يكون فى البدن ، وبالفتح لما يكون فى الرأى والعقل والنفس .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله بالجنوح للسلم إذا جنح لها الأعداء وربما كان جنوحهم لها مظنة الخداع والمكر ، ووعده أن يكفيه أمرهم إذا أرادوا التوسل بالصلح إلى الحرب وضروب الإيذاء والشر ، وامتن عليه بتأييده له بنصره وبالمؤمنين إذ سخرهم له وألف بين قلوبهم باتباعه - قفى على ذلك بوعده بكفايته له ولهؤلاء المؤمنين الذين ألف قلوبهم فى حالى الحرب والسلم وجعل هذا تقدمة لأمره بتحريضهم على القتال حين الحاجة إليه كما إذا بدأ العدو بالحرب أو نقض العهد أو خان فى الصلح .

الإيضاح

(يأيها النبى حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) أى إن الله تعالى كاف لك كل ما يهمك من أمر الأعداء وغيرهم ، وكاف لمن أيدك من المؤمنين .

ونحو الآية قوله « الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ . وقوله : قُلْ حَسْبِيَ اللهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ » .

وإذا كان دأب المؤمنين أن يقولوا « حسبنا الله ونعم الوكيل » فأجْدِرْ بأنبيائه أن يكونوا أكمل توحيدا وتوكلا عليه من غيرهم ولا سيما خاتم أنبيائهم .

والمراد بالمؤمنين جماعتهم من المهاجرين والأنصار ولا سيما من شهد منهم بدرا .

(يأيها النبى حرض المؤمنين على القتال) أى حرض المؤمنين على القتال ورغبهم فيه لدفع عدوان الكفار من إعلاء كلمة الحق والعدل وأهلهما على كلمة الباطل والظلم وأنصارهما، إذ ذلك من ضرورات الاجتماع البشرى وسنة التنازع فى الحياة والسيادة.

والخلاصة — حثهم على ما يقيهم أن يكونوا حرضا أو يكونوا من الهالكين بعدوان الكافرين عليهم وظلمهم إياهم إذا رأوهم ضعفاء مستسلمين .

(إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا) أى إن يوجد منكم عشرون صابرون يغلبوا بتأثير إيمانهم وصبرهم وفقههم مائتين من الكافرين الذين جردوا من هذه الصفات الثلاث ، وهذا عِدة منه تعالى و بشارة بأن الجماعة من المؤمنين إن صبروا غلبوا عشرة أمثالهم من الكافرين بعون الله وتأييده .

والخلاصة — ليصبرنّ الواحد لعشرة ، فجماعة المؤمنين الصابرين ترجح جماعة الكافرين بهذه النسبة العشرية ، سواء قلوا أو كثروا ، بحيث يؤمرون بقتالهم وعدم الفرار منهم إذا بدءوهم بالقتال .

(ذلك بأنهم قوم لا يفقهون) أى أنتم تغلبونهم وهم بهذه النسبة بسبب أنهم قوم لا يفقهون ما تفقهون من حكمة الحرب وما يراد بها من مرضاة الله عز وجل فى إقامة سننه العادلة و إصلاح حال عباده بالعقائد الصحيحة والأخلاق الفاضلة ومن وجوب مراعاة أحكامه وسننه بإعداد كل ما يستطاع من قوة ، ومن كون غاية القتال عند المؤمنين إحدى الحسنيين النصر والغنيمة الدنيوية ، أو الشهادة والسعادة الأخروية .

وحالهم يخالف حالكم فى كل ما تقدم ، ولا سيما منكرى البعث والجزاء منهم كمشركى العرب فى ذلك العصر ، واليهود الذين أعمتهم المطامع المادية وحب

الشهوات ، فهم أحرص على الحياة منكم لعدم اعتقادهم بسعادة أخروية ، إلى أن أهل الـكتاب يظنون أنهم يحصلون عليها بنسبهم وشفاعة أنبيائهم .

وفى الآية إيماء إلى أن من شأن المؤمنين أن يكونوا أعلم من الكافرين بكل ما يتعلق بحياة البشر وارتقاء الأمم ، ومن ثم كانت المائة منهم دون العشرة من المؤمنين الصابرين .

وهكذا كان المسلمون فى العصور الأولى حين كانوا يعملون بهداية دينهم وكانوا بها أرباب ملك واسع وعز وجاه عريض ودانت لهم الشعوب الـكثيرة ، حتى إذا ما تركوا هذه الهـداية زال مجدهم وسؤددهم وذهب ريحهم ونزع منهم أكثر ذلك الملك .

وبعد أن بين المرتبة العليا التى ينبغى أن تكون للمؤمنين ، قفّى على ذلك ببيان ما دونها من مرتبة الضعف فقال :

(الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا فان يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين وإن يكن منكم ألف يغلبوا ألفين باذن الله والله مع الصابرين) روى البخارى عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما نزلت « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين » شق ذلك على المسلمين حين فرض عليهم ألا يفر الواحد من عشرة ، فجاء التخفيف فقال : « الآن خفف الله عنكم وعلم أن فيكم ضعفا ، فإن يكن منكم مائة صابرة يغلبوا مائتين » قال : فلما خفف الله عنهم من العدة نقص من الصبر بقدر ما خفف عنهم اه .

وبهذا الحديث استدل العلماء على وجوب ثبات الواحد المسلم إذا قاوم رجلين من الـكفار وتحريم الفرار عليه منهما ، سواء طلباه أو طلبهما ، وسواء وقع ذلك وهو واقف فى الصف مع العسكر أو لم يكن هناك عسكر .

والخلاصة — إن أقل حال للمؤمنين مع الـكفار فى القتال أن ترجح المائة منهم على المـائتين والألف على الألفين ، وإن هذه رخصة خاصة بحال الضعف كما كان الحال فى الوقت الذى نزلت فيه هذه الآيات وهو وقت غزوة بدر حين كان المؤمنون

لا يجدون ما يكفيهم من القوت ولم يكن لديهم إلا فرس واحد ، وأنهم خرجوا بقصد لقاء العير غير مستعدين للحرب ، وكانوا أقل من ثلث المشركين الكاملى الأهبة والعدة .

ولما كملت للمؤمنين القوة كانوا يقاتلون عشرة أضعافهم أو أكثر وينتصرون عليهم ، وما تم لهم فتح ممالك الفرس والروم وغيرهم إلا بذلك .

وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عهده ومن بعده القدوة فى ذلك ، فقد كان الجيش الذى أرسل إلى مؤتة من مشارف الشام للقصاص ممن قتلوا رسوله الحرث بن عمير الأزدى ثلاثة آلاف وكان الجيش الذى قاتلهم من الروم ومتنصرة العرب مائة وخمسين ألفا .

وقوله بإذن الله أى بمعونته وتوفيقه ، وبمعنى الآية قوله « يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ ، إِنَّ اللهَ مَعَ الصَّابِرِينَ » .

وفى ذلك إيماء إلى أن من سنن الله فى الغلب أن يكون للصابرين على غيرهم ، وفى هذا تحذير للمؤمنين أن يغتروا بدينهم ويظنوا أن الإيمان وحده يقتضى النصر والغلب وإن لم يقترن بالصفات اللازمة لكماله ، ومن أهمها وأعظمها الصبر والعلم بحقائق الأمور ومعرفة سنن الله فى خلقه .

مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللهَ إِنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) .

شرح المفردات

الأسرى : واحدهم أسير وهو من الأسر وهو الشد بالإسار أى القِدّ من الجلد ، وكان من يؤخذ من العسكر فى الحرب يشد لئلا يهرب ، ثم صار يطلق على أخيذ الحرب و إن لم يشد ، والإثخان فى كل شىء : قوته وشدته ، يقال قد أثخنه المرض إذا اشتدت قوته عليه ، وكذلك أثخنته الجراح ، والثخانة الغلظ ، فكل شىء غليظ فهو ثخين ، والعَرَض : مايعرض ولايدوم سمى به حطام الدنيا لأنه حدث قليل اللبث ، ومسكم : أى أصابكم ، وفيما أخذتم : أى لأجل ما أخذتم من الفداء .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه ماينبغى أن يكون عليه المؤمنون فى حال الغزو والجهاد أمام أعدائهم الكافرين من الصبر والثبات على القتال ، ومن تفضيل السلم إذا جنح العدو إليها ــ قفى على ذلك بذكر أحكام الأسرى لأن أمورهم يفصل فيها بعد القتال غالبا كما وقع فى وقعة بدر وكما يقع فى كل زمان .

روى ابن أبى شيبة والترمذى وابن مردويه والبيهقى عن ابن مسعود قال : « لما كان يوم بدرجىء بالأسارى ، فقال أبو بكر رضى الله عنه يارسول الله قومك وأهلك استبقهم لعل الله أن يتوب عليهم، وقال عمر يا رسول الله كذبوك وأخرجوك وقاتلوك ، قدّمهم فاضرب أعناقهم ، وقال عبد الله بن رواحة رضى الله عنه أنت فى واد كثير الحطب فأضرمه عليهم نارا ، فقال العباس رضى الله عنه وهو يسمع مايقول : أقطعت رحمك ؟ فدخل النبى صلى الله عليه وسلم ولم يرد عليهم شيئا ، فقال أناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال أناس : يأخذ بقول عمر ، وقال أناس : يأخذ بقول عبد الله ابن رواحة ، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : إن الله ليلين قلوب رجال حتى تكون ألين من اللبن ، و إن الله سبحانه ليشدد قلوب رجال حتى تكون أشد

من الحجارة ، مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال (فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ) ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى عليه السلام قال : (إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ، وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) ومثلك يا عمر كمثل موسى عليه السلام إذ قال : (رَبَّنَا اطْمِسْ عَلَى أَمْوَالِهِمْ وَاشْدُدْ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الْأَلِيمَ) وإن مثلك يا عمر مثل نوح عليه السلام قال : (رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَى الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّاراً) أنتم عالة فلا يفلتن أحد إلا بفداء أو ضرب عنق ـ فقال عبد الله رضى الله عنه يا رسول الله إلا سهيل بن بيضاء فإنى سمعته يذكر الإسلام ، فسكت رسول الله صلى الله عليه وسلم فما رأيتنى فى يوم أخوف من أن تقع علىّ الحجارة منى فى ذلك اليوم ، حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا سهيل بن بيضاء فأنزل الله تعالى (ما كان لنبى أن يكون له أسرى) إلى آخر الآيتين» .

وروى أحمد من حديث ابن عباس قال : «لما أسروا الأسارى (يعنى يوم بدر) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى بكر وعمر : ما ترون فى هؤلاء الأسارى ؟ فقال أبو بكر يا رسول الله هم بنو العم والعشيرة ، أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون قوة لنا على الكفار ، وعسى الله أن يهديهم للاسلام . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما ترى يا بن الخطاب ؟ قال لا والله لا أرى الذى رأى أبو بكر ، ولكننى أرى أن تمكننا فنضرب أعناقهم ، فتمكن عليا من عقيل (أخيه) فيضرب عنقه ، وتمكننى من فلان ـ نسيب لعمر ـ فأضرب عنقه ، ومكن فلانا من فلان قرابته فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها ، فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت .

فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر قاعدين يبكيان ، قلت يارسول الله أخبرنى ، من أى شىء تبكى أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت

بكاء بكيت، و إن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أبكى للذى عرض علىّ أصحابك من أخذهم الفداء ، لقد عرض علىّ عذابهم أدنى من هذه الشجرة (شجرة قريبة منه) وأنزل الله عز وجل (ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) » .

وفى هذا الحديث تصريح بأن الذين طلبوا منه صلى الله عليه وسلم اختيار الفداء كثيرون ، و إنما ذكر فى أكثر الروايات أبو بكر رضى الله عنه ، لأنه أول من أشار بذلك ، ولأنه أكبرهم مقاما .

وروى ابن المنذر عن قتادة قال : أراد أصحاب محمد الفداء يوم بدر ففادوهم بأربعة آلاف ، أربعة آلاف .

الإيضاح

(ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض) أى ما كان من شأن نبى من الأنبياء ولا من سنته فى الحرب أن يكون له أسرى يتردد أمره فيهم بين المنّ والفداء إلا بعد أن يثخن فى الأرض أى إلا بعد أن يعظم شأنه فيها ويتم له الغلب والقوة بقتل أعدائه ، لأن الملك والدولة إنما تقوى وتشتد بالقتال والقتل كما قال :

لا يسلم الشرف الرفيع من الأذى　　حتى يراق على جوانبه الدم

إلى أن كثرة القتل توجد الرعب وشدة المهابة ، وذلك يمنع من الجرأة والإقدام على ما لا ينبغى ، ومن ثم أمر الله به .

وخلاصة ذلك — إن اتخاذ الأسرى إنما يكون خيراً ورحمة ومصلحة للبشر إذا كان الظهور والغلب لأهل الحق والعدل ــ فى المعركة الواحدة بإثخانهم لأعدائهم من المشركين والمعتدين ، وفى الحالة العامة التى تعم كل معركة وكل قتال : فبإثخانهم فى الأرض بالقوة العامة والسلطان الذى يرهب الأعداء .

(تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة) أى تريدون عرض الدنيا الفانى الزائل وهو المال الذى تأخذونه من الأسرى فداء لهم ، والله يريد لكم ثواب الآخرة الباقى بما يشرعه لكم من الأحكام الموصلة إليه مادمتم تعملون بها ، ويدخل فى ذلك الاستعداد للقتال بقدر الاستطاعة إرادة الإثخان فى الأرض والسيادة فيها لإعلاء كلمة الحق وإقامة العدل .

وفى ذلك إنكار لعمل وقع من جمهور المؤمنين على خلاف تلك القاعدة التى تقتضيها الحكمة والرحمة ، وما كان للنبى صلى الله عليه وسلم إقرار مثل هذا العمل ، ومن ثم عاتبهم الله على ما فعلوا بعد بيان سنة النبيين ، كما عاتب رسوله أيضا .

(والله عزيز حكيم) ومن ثم يجعل أولياءه يغلبون أعداءه ويتمكنون منهم قتلا وأسرا ، ويطلق لهم أخذ الفداء ، ولكنه يؤخر ذلك إلى أن يكثروا ويعزوا ، ونحو الآية قوله : « وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ » .

ولا تتم لهم العزة إلا بتقديم الإثخان فى الأرض والسيادة فيها على المنافع العرضية بمثل فداء الأسرى من المشركين وهم فى عنفوان قوتهم وكثرتهم .

وعلى هذه القاعدة جرت الدول العسكرية فى العصر الحديث ، فإذا رأت من البلاد التى تحتلها أدنى بادرة من المقاومة بالقوة نكلت بأهلها أشد التنكيل ، فتخرب البلاد وتقتل الأبرياء مع المشاغبين ، بل لا تتعفف من قتل النساء والأطفال بنيران المدافع وقذائف الطائرات والدبابات .

ولكن الإسلام ـ وهو دين الرحمة والعدل ـ لا يبيح شيئاً من ذلك .

(لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) أى ولولا كتاب من الله سبق فى علمه الأزلى ألا يعذبكم والرسول فيكم وأنتم تستغفرونه من ذنوبكم ـ لمسكم بسبب ما أخذتم من الفداء عذاب عظيم .

أخرج ابن المنذر عن نافع عن ابن عمر قال : « اختلف الناس فى أسارى بدر ، فاستشار النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر وعمر ، فقال أبو بكر فادهم ، وقال عمر

اقتلهم ، فقال قائل أرادوا قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهدم الإسلام ويأمره أبو بكر بالفداء ، وقال قائل لو كان فيهم أبو عمر أو أخوه ما أمر بقتلهم .

فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول أبى بكر ففاداهم فنزل (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم) فقال رسول الله : إن كاد ليمسنا فى خلاف ابن الخطاب عذاب عظيم ، ولو نزل العذاب ما أفلت إلا عمر » .

وبعد أن عاتبهم على أخذ الفداء أباح لهم أكل ما أخذوه ، وعدّه من جملة الغنائم التى أباحها لهم فى أول السورة فقال :

(فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا) أى فكلوا مما غنمتم من الفدية حال كونه حلالا بإحلاله لكم ، طيبا فى نفسه لاخبث فيه مما حرم لذاته كالدم ولحم الخنزير .

(واتقوا الله) فى أن تعودوا إلى أكل شىء من أموال الناس كفارا كانو أو مؤمنين من قبل أن يحله لكم ربكم .

(إن الله غفور رحيم) أى إنه غفور لذنبكم بأخذ الفداء وإيثار جمهوركم لعرض الدنيا على ما يقتضيه إيثار الآخرة من طلب الإثخان أولا لإعزاز الحق وأهله بإذلال الشرك وكبْت حزبه ، رحيم بكم إذ أباح لكم ما أخذتم ، وأباح لكم الانتفاع به .

وخلاصة ما تقدم — إنه ليس من سنة الأنبياء ، ولا مما ينبغى لأحد منهم أن يكون له أسرى يفاديهم أو يمنّ عليهم إلا بعد أن يكون له الغلب والسلطان على أعدائه وأعداء الله الكافرين ، لئلا يفضى أخذه فداء الأسرى إلى ضعف المؤمنين وقوة أعدائهم وجرأتهم عليهم ، وما فعله المؤمنون من مفاداة أسرى بدر بالمال كان ذنبا سببه إرادة جمهورهم عرض الحياة الدنيا قبل الإثخان الذى تقتضيه الحكمة بإعلاء كلمة الله تعالى ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، ولولا كتاب من الله سبق من عدم عقابهم على ذنب أخذ الفداء قبل إذنه تعالى وعلى خلاف سنته ـ لمسهم عذاب عظيم فى أخذهم ذلك ، وإنه أحل لهم ما أخذوا وغفر لهم ذنبهم بأخذه قبل إحلاله لهم ، والله غفور رحيم .

يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى : إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١) .

المعنى الجملى

لما أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم الفداء من الأسرى شق عليهم أخذ أموالهم، فأنزل الله هذه الآية استمالة لهم وترغيبا فى الإسلام ببيان ما فيه من خيرى الدنيا والآخرة ، وتهديدا وإنذارا لهم ببقائهم على الكفر وخيانته صلى الله عليه وسلم ، وبشارة للنبى صلى الله عليه وسلم ، بحسن العاقبة والظفر له ولمن تبعه من المؤمنين .

روى أن الآية نزلت فى العباس وعَقِيل بن أبى طالب ونَوْفل بن الحرث ، وكان العباس أسيرا يوم بدر ومعه عشرون أوقية من الذهب أخرجها ليطعم الناس ، وكان أحد العشرة الذين ضمنوا الطعام لأهل بدر ، فلم تبلغه النوبة حتى أسر ، فقال العباس : كنت مسلما إلا أنهم أكرهونى ، فقال عليه السلام : إن يكن ما تذكره حقا فالله يجزيك ، فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، قال العباس فكلمت رسول الله أن يرد ذلك الذهب علىّ فقال : أما شىء خرجت لتستعين به علينا فلا ، قال : وكلفنى الرسول فداء ابن أخى عقيل بن أبى طالب عشرين أوقية ، وفداء نوفل بن الحرث ، فقال العباس : تركتنى يا محمد أتكفف قريشا ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أين الذهب الذى دفعته إلى أم الفضل وقت خروجك من مكة وقلت لها : لا أدرى ما يصيبنى ؟ فإن حدث بى حادث فهو لك ولعبد الله وعبيد الله والفضل، فقال العباس : وما يدريك ؟ قال أخبرنى ربى ، قال فأنا أشهد أنك صادق ، وأن

لا إله إلا الله وأنك عبده ورسوله ، والله لم يطلع عليه أحد إلا الله ، ولقد دفعته إليها فى سواد الليل ، ولقد كنت مرتابا فى أمرك ، فأما إذ أخبرتنى بذلك فلا ريب .

قال العباس : فأبدلنى الله خيرا من ذلك ، لى الآن عشرون عبدا ، وإن أدناهم ليضرب فى عشرين ألفا ، وأعطانى زمزم وما أحب أن لى بها جميع أموال مكة ؛ وأنا أنتظر المغفرة من ربى .

الإيضاح

(يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) أى قل للذين فى أيديكم من الأسرى الذين أخذتم منهم الفداء : إن كان الله تعالى يعلم أن فى قلوبكم الآن إيمانا أو سيظهر فى حينه ـ كما يدعى بعضكم ـ يعطكم إذ تسلمون ماهو خير لكم مما أخذه المومنون منكم من الفداء بما تشاركونهم فى المغانم وغيرها من النعم التى وعد المؤمنون بها .

روى أبو الشيخ عن ابن عباس : أن العباس وأصحابه قالوا للنبى صلى الله عليه وسلم : آمنا بما جئت به ونشهد أنك رسول الله فنزل (إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا) الآية .

(ويغفر لكم والله غفور رحيم) أى ويغفر لكم ما كان من الشرك وما استتبعه من السيئات والأوزار ، والله غفور لمن تاب من كفره وذنوبه ، رحيم بالمؤمنين فيشملهم بعنايته وتوفيقه ويعدّهم للسعادة فى الدنيا والآخرة .

وفى ذلك من الحضّ على الإسلام والدعوة إليه ما لا يخفى .

(وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل) أى وإن يريدوا خيانتك بإظهار الميل إلى الإسلام والرغبة عن قتال المسلمين ، فلا تخف مما عسى أن يكون من خيانتهم وعودتهم إلى القتال ، فإنهم قد خانوا الله من قبل ، فنقضوا الميثاق الذى أخذه على البشر بما أقامه على وحدانيته من الدلائل العقلية والكونية ، وبما آتاهم من العقل الذى يتدبرون به سنن الله فى خلقه .

(فأمكن منهم) يقال مكنه من الشيء وأمكنه منه : أي فمكنك أنت وصحبك منهم بنصرك عليهم ببدر مع التفاوت العظيم بين قوتك وقوتهم وعددك وعددهم ، وهكذا سيمكنك ممن يخونونك من بعد .

(والله عليم حكيم) فهو يعلم ما ينتوونه وما يستحقونه من عقاب ، حكيم يفعل مايفعل على حسب ما تقتضيه حكمته البالغة ، فينصر المؤمنين ويظهرهم على الكافرين .

وفى الآية من العبر :

(١) إنه يجب على المؤمنين ترغيب الأسرى فى الإيمان ، وإنذارهم عاقبة الخيانة إذا ثبتوا على الكفر وعادوا إلى البغى والعدوان .

(٢) إن فيها بشارة للمؤمنين باستمرار النصر وحسن العاقبة فى كل قتال يقع بينهم وبين المشركين ما داموا محافظين على أسباب النصر المادية والمعنوية التى علمت مما تقدم .

روى البخارى عن أنس « أن رجالا من الأنصار استأذنوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى ترك فداء عمه العباس رضى الله عنه وكان فى أسرى المشركين يوم بدر فقالوا : ائذن لنا فنترك لابن أختنا العباس فداءه (كانت جدته أنصارية) فقال صلى الله عليه وسلم : والله لاتذرون منه درهما » .

وقد كان فداء الأسير أربعين أوقية ذهبا ، فجعل على العباس مائة أوقية وعلى عقيل ثمانين ، فقال له العباس : ألقرابة صنعت هذا ؟ قال : فأنزل الله تعالى (يأيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى ، إن يعلم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) الآية فقال العباس (بعد إسلامه) وددت لو كان أخذ منى أضعافها لقوله تعالى (يؤتكم خيرا مما أخذ منكم) اهـ .

وبعد أن ذكر تلك القواعد الخاصة بالحرب والسلم وما يجب أن يعمل مع الأسرى ختم السورة بولاية المؤمنين بعضهم لبعض بمقتضى الإيمان والهجرة وما يلزم ذلك ،

وولاية الكافرين بعضهم لبعض ، ثم أمر بالمحافظة على العهود والمواثيق مع الكفار ما دام العهد محفوظا غير منبوذ ولا منكوث فقال :

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا ، أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ، وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا ، وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ ، وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ، إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ ، وَأُولُو الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) .

المعنى الجملى

قسم الله المؤمنين أربعة أقسام ، وبين حكم كل منها ومنزلته من بينها :

(١) المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر — إلى صلح الحديبية.

(٢) الأنصار الذين كانوا بالمدينة وآووا النبي صلى الله عليه وسلم والمهاجرين عند هجرتهم إليهم .

(٣) المؤمنون الذين لم يهاجروا .

(٤) المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

الإيضاح

(١) (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله) أى هؤلاء الكملة هم المؤمنون الذين هجروا أوطانهم فرارا بدينهم من فتنة المشركين إرضاء لربهم ونصرا لرسوله صلى الله عليه وسلم ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله : أى بذلوا الجهد بقدر الوسع ، واقتحموا المشاق .

أما ما كان من بذل الأموال فهو قسمان :

(ا) ما ينفق فى التعاون والهجرة والدفاع عن دين الله ونصر دينه وحماية رسوله .

(ب) ما يكون بسخاء الأنفس بترك ما تركوه فى أوطانهم عند خروجهم منها .

وما كان من بذل الأنفس فهو أيضا ضربان :

(ا) قتال الأعداء وعدم المبالاة بكثرة عَددهم وعُددهم .

(ب) ما يكون قبل القتال من احتمال المشاق ومغالبة الشدائد والصبر على الاضطهاد والهجرة من البلاد ، وما يصحب ذلك من سغب وتعب ونحو ذلك .

(٢) (والذين آووا ونصروا) أى والذين آووا الرسول ومن هاجر من أصحابه ونصروهم وآمنوهم من المخاوف ، فقد كانت يثرب ملجأ المهاجرين ، شاركهم أهلها فى أموالهم وآثروهم على أنفسهم وقاتلوا من قاتلهم وعادوا من عاداهم ، ومن جرّاء هذا جعل الله حكمهم حكم المهاجرين فى قوله :

(أولئك بعضهم أولياء بعض) أى يتولى بعضهم من أمر الآخرين ما يتولونه من أمر أنفسهم حين الحاجة إلى التعاون والتناصر فى القتال وما يتعلق به من الغنائم لأن حقوقهم ومرافقهم مشتركة ، ويجب عليهم كفاية المحتاج ، وإغاثة المضطر منهم .

(٣) (والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا) الولاية بفتح الواو وكسرها ، وقيل هى بالفتح خاصة بالنصرة والمعونة والنسب والدين ، وبالكسر فى الإمارة وتولى الأمور العامة ، لأنها من قبيل الصناعات والحِرف ،

أى إن المؤمنين المقيمين فى أرض المشركين وتحت سلطانهم وحكمهم ، ودارهم دار حرب وشرك لايثبت لهم شىء من ولاية المؤمنين الذين فى دار الإسلام ، إذ لاسبيل إلى نصر أولئك لهم .

أما من أسره الكفار من دار الإسلام فله حكم أهل هذه الدار ، ويجب على المسلمين السعى فى فكاكهم بقدر ما يستطيعون من الحول والقوة ، بل يجب بذل هذه الحماية لأهل الذمة أيضا .

(وإن استنصروكم فى الدين فعليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق) أى إنه لا ولاية لكم عليهم إلا إذا قاتلهم الكفار أو اضطهدوهم لأجل دينهم وطلبوا نصركم عليهم ، فعليكم أن تساعدوهم بشرط أن يكون الكفار حربيين لاعهد بينكم وبينهم، أما إن كانوا معاهدين فيجب الوفاء بعهدهم ، ولانباح خيانتهم وغدرهم بنقض العهود والمواثيق.

(والله بما تعملون بصير) فعليكم أن تقفوا عند حدوده ، وأن تراقبوه وتتذكروا اطلاعه على أعمالكم ، وتتوخوا فيها الحق والعدل ؛ وتتقوا الهوى الذى يصد عن ذلك .

وبهذه المحافظة على العهود والمواثيق سرا وجهراً امتازت الشريعة الإسلامية على الشرائع الوضعية ، فشعار أهلها الوفاء بالعهود والبعد عن الخيانة والغدر .

وإن أعظم دول المدنية فى العصر الحاضر تنقض عهودها جهرة متى وجدت الفرصة سانحة ، ولا سيما عهودها للضعفاء ، وتتخذها خداعا مع الأقوياء ، وما أكثر ما تنقضها بالتأويل والتحايل فى التفسير إذا رأت فى ذلك مصلحتها ، حتى قال رئيس الدولة الألمانية : ما المعاهدات إلاقصاصات ورق ، وقال بسمارك أكبر ساسة هذه الدولة : المعاهدات حجة القوى على الضعيف ، وأبرع الساسة فى التفصى منها بالتأويل هم الإنكليز .

(والذين كفروا بعضهم أولياء بعض) أى فى النصرة والتعاون على قتال

الشركين ، فهم فى جملتهم فريق واحد تجاه المسلمين . وإن كانوا شيعا يعادى بعضهم بعضا ، ولم يكن فى الحجاز حين نزلت هذه السورة إلا المشركون واليهود ، وكان اليهود يتولون المشركين وينصرونهم على النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، ونقضوا العهود التى كانت بينه وبينهم فقاتلهم حتى أجلاهم من خيبر .

(إلا تفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) أى إن لم تفعلوا ما شرع لكم من ولاية بعضكم لبعض ، ومن تناصركم وتعاونكم تجاه ولاية الكفار بعضهم لبعض عليكم ، ومن الوفاء بالعهود والمواثيق مع الكفار إلى أن ينقضى عهدهم وينبذوه على سواء ــ يقع من الفتنة والفساد فى الأرض ما فيه أعظم الضرر عليكم بتخاذلكم الذى يفضى إلى فشلكم وظفر الأعداء بكم واضطهادكم فى دينكم بصدكم عنه كما وقع ذلك بضعفائكم بمكة قبل الهجرة . ثم فضل الله المهاجرين والأنصار على غيرهم فقال :

(والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك هم المؤمنون حقا) أى هؤلاء المهاجرون والأنصار هم المؤمنون حق الإيمان وأكمله دون من لم يهاجر وأقام بدار الشرك ولم يغز مع المسلمين عدوهم .

(لهم مغفرة ورزق كريم) أى لهم مغفرة تامة من ربهم تمحو ما فرط منهم من السيئات ، ورزق كريم فى دار الجزاء ، لأنهم قد تركوا الأهل والوطن وبذلوا النفس والمال وأعرضوا عن سائر اللذات الجسمانية ، وعملوا ما يقربهم من ربهم فى دار النعيم

(٤) (والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم) أى وهؤلاء الذين تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى وهاجروا وجاهدوا معكم أعداءكم ــ فأولئك منكم أى فيلتحقون بالمهاجرين الأولين والأنصار وبما تقدم من الولاية والجزاء .

وفى جعلهم منهم دليل على فضل السابقين على اللاحقين ، يرشد إلى ذلك قوله

تعالى « لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ، أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى » وقوله : « وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ » .

ولا يخفى مافى الآية من ترغيب فى الإيمان والهجرة .

(وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله) أولو الأرحام : هم أصحاب القرابات ، والأرحام واحدها رحم (بزنة قُفْل وكَتِف) وأصله رحم المرأة وهو موضع تكوين الولد ، سمى به الأقارب لأنهم من رحم واحد ، أى وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض وأحق من المهاجرين والأنصار الأجانب بالتعاون والتناصر ، وبالتوارث فى دار الهجرة فى ذلك العهد وفى كل عهد ، وقوله : فى كتاب الله ، أى فى حكمه الذى كتبه على عباده المؤمنين ، وأوجب به عليهم صلة الأرحام والوصية بالوالدين وذى القربى .

والخلاصة — إن القريب ذا الرحم أولى من غيره من المؤمنين بولاء قريبه وبرّه ، ومقدم عليه فى جميع الولايات المتعلقة به كولاية النكاح وصلاة الجنازة وغيرها ، وإذا وجد قريب وبعيد يستحقان البر والصلة فالقريب أولى كما قال تعالى : « وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ابدأ بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شىء فلأهلك ، فإن فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك ، فإن فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » ، أى فللمستحق من الأجانب .

(إن الله بكل شىء عليم) أى فهو سبحانه إنما شرع لكم هذه الأحكام فى الولاية العامة والخاصة والعهود والمواثيق وصلة الأرحام وأحكام القتال والغنائم وسنن

التشريع والأحكام ـ عن علم واسع محيط بكل شيء من مصالح الدينية والدنيوية، ونحو الآية قوله : « وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ » .

زادنا الله علما بفقه كتابه ، ووفقنا للعمل بأحكامه وآدابه ، وجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه ، إنه هو السميع المجيب .

موضوعات السور المكية والمدنية

تقدم أن قلنا فى آخر سورة البقرة : إن أمهات المسائل التى ذكرت فى السور المكية هى :

أصول الإيمان من الاعتقاد بوحدانية الله والتصديق بالوحى والرسالة والبعث والجزاء ، وقصص الرسل مع أقوامهم ، ثم أصول التشريع العامة والآداب والفضائل الثابتة ، وجاء فى أثناء ذلك محاجة المشركين ودعوتهم إلى الإيمان بتلك الأصول ودحض شبهاتهم وإبطال ضلالاتهم والنعى على خرافاتهم .

وأمهات ما جاء فى السور المدنية ـ قواعد التشريع التفصيلية ، ومحاجّة أهل الكتاب ببيان ما ضلوا فيه من هداية كتبهم ورسلهم ، فكثر فى سورة البقرة محاجة اليهود ، وكثر فى سورة آل عمران محاجة النصارى ، وكثر فى سورة المائدة محاجة الفريقين ، وكثر فى سورة النساء الأحكام المتعلقة بالمنافقين ، وكثر فى سورة التوبة فضائح المنافقين .

أهم ما تشتمل عليه سورة الأنفال من الأحكام

(١) تعليل أفعاله وأحكامه بمصالح الخلق كقوله : « وَيُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ » وقوله : « وَمَا جَعَلَهُ اللهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ » .

(٢) كفاية الله تعالى رسوله مكر مشركى قريش فى مكة حين ائتمارهم على

حبسه طيلة حياته أو نفيه من بلده أو قتله كما قال سبحانه « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ، وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

(٣) امتناع تعذيب المشركين ما دام الرسول فيهم كما قال : « وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ » .

(٤) استغاثة الرسول ربه وإمداده بالملائكة كما قال : « إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ » .

(٥) كراهة مجادلة الرسول فيما يأمر به ويرّغب فيه من أمور الدين ومصالح المسلمين بعد أن تبين لهم أنه الحق كما قال « يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ » .

أما المجادلة والمراجعة فى المصالح الحربية والسياسية قبل أن يتبين الحق فيها فمحمودة، إذ بها تتم المشاورة التى عمل بها النبى صلى الله عليه وسلم فى مواطن كثيرة .

(٦) إن من شأن صادق الإيمان أن يتوكل على الله ، أى يكل إليه أموره وحده ، فلا يتكل على مخلوق مربوب لخالق مثله ، فكل المخلوقات سواء فى الخضوع لسننه ، ومن شأن المؤمن المتوكل أن يطلب كل شىء من سببه خضوعا لسننه فى نظام خلقه ، فإذا جهل الأسباب أو عجز عنها وكل أمره فيها إلى ربه داعيا أن يعلّمه ما جهل منها ، وأن يسخر له ما عجز عنه من جماد وحيوان أو إنسان كما قال « وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » وبين فائدة ذلك بقوله « وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ » .

(٧) إن الظلم فى الأمم يقتضى عقابها فى الدنيا بالضعف والانحلال الذى قد يفضى إلى الزوال أو فقد الاستقلال ، وإن هذا العقاب يقع على الأمة بأسرها لا على مقترفى الظلم وحدهم كما قال : « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

(٨) إن الافتتان بالأموال والأولاد مدعاة لضروب من الفساد ، فإن حب المال والولد من الغرائز التى يعرض للناس فيها الإسراف إذا لم تهذب بهدى الدين وحسن التربية والتعليم كما قال : « وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ » .

(٩) إن تقوى الله فى الأعمال العامة والخاصة تكسب صاحبها ملكة يفرق بها بين الحق والباطل والخير والشر كما قال : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا » .

(١٠) إن تغير أحوال الأمم وتنقلها فى الأطوار من نعم إلى نقم أو بالعكس أثر طبيعى لتغييرها ما بأنفسها من العقائد والأخلاق والآداب « ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ » .

(١١) وجوب إعداد الأمة بكل ما تستطيع من قوة لقتال أعدائها ، وذلك يشمل السلاح ، وهو يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة ، وقد كثرت أنواعه من برّى وبحرى وهوائى ، ومرابطة الفرسان فى ثغور البلاد لإرهاب الأعداء وإخافتهم من عاقبة التعدى على الأمة ومصالحها أو على أفرادها «وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ » .

(١٢) تفضيل السلم على الحرب إذا جنح لها العدو ، لأن الحرب ضرورة من ضرورات الاجتماع تقدر بقدرها «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ» .

(١٣) المحافظة على الوفاء بالعهد والميثاق فى الحرب والسلم ، وتحريم الخيانة سرا وجهرا « وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ » .

(١٤) وجوب معاملة ناقضى العهد بالشدة التى يكونون بها عبرة ونكالا لغيرهم

تمنعهم من الجرأة والإقدام على العودة لمثل ذلك « فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ » .

(١٥) جعل الغاية من القتال الدينى حرية الدين ومنع الفتنة فيه حتى لا يرجع المشركون أحدا من دينه « وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » .

(١٦) اتقاء التنازع والتفرق حال القتال لأنه سبب الفشل وذهاب القوة « وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ » ، وقد جرت على ذلك الدول فى العصر الحديث ، فإنها تبطل تنازع الأحزاب زمن الحرب وتكتفى بالشورى العسكرية التى شرعها الإسلام وعمل بها النبى صلى الله عليه وسلم ، فى غزوة بدر ، وفرضت عليه فى غزوة أحد « وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » .

(١٧) منع اتخاذ الأسرى ومفاداتهم بالمال فى حال الضعف ، وجواز ذلك حين الإثخان فى الأرض بالقوة والعزة والسيادة ، مع ترغيب الأسرى فى الإيمان و إنذارهم أن يخونوا المسلمين بعد إطلاقهم بمنّ أو فداء .

سورة التوبة — سورة براءة

عدد آيها ثلاثون ومائة ، وهى مدنية ، ولها أسماء كثيرة : منها الواضحة لما تضمنته من ذكر أسرار المنافقين و إنبائهم بما فى قلوبهم من الكفر وسوء النيات ، والمدمدمة ، والمخزية .

وقد نزل معظمها بعد غزوة تبوك ، وهى آخر غزواته صلى الله عليه وسلم ، وقد كان الاستعداد لها وقت القيظ زمن العسرة ، وفى أثنائها ظهر من علامات نفاق المنافقين ما كان خفيًّا من قبل .

وأولها نزل سنة تسع بعد فتح مكة ، فأرسل النبى صلى الله عليه وسلم عليا ليقرأها على المشركين فى الموسم .

روى البخارى عن البَرَاء بن عازب قال : آخر آية نزلت « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُمْ فِى الْكَلاَلَةِ » وآخر سورة نزلت براءة .

ووجه المناسبة بينها و بين ماقبلها — أنها كالمتممة لها فى معظم ما فى أصول الدين وفروعه ، وفى التشريع الذى جله فى أحكام القتال والاستعداد له ، وأسباب النصر فيه ، وأحكام المعاهدات والمواثيق من حفظها ونبذها عند وجود المقتضى لذلك ، وأحكام الولاية فى الحرب وغيرها بين المؤمنين بعضهم مع بعض ، والكافرين بعضهم مع بعض ، وأحوال المؤمنين الصادقين والكفار والمذبذبين من المنافقين ومرضى القلوب ، فما بدئ به فى الأولى أتم فى الثانية — وهاك أمثلة على ذلك .

(١) تفصيل الكلام فى قتال المشركين وأهل الكتاب فى كل منهما .

(٢) ذكر فى الأولى صدّ المشركين عن المسجد الحرام ، وأنهم ليسوا بأوليائه ، وجاء فى الثانية « مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ » إلى آخر الآيات

(٣) ذكرت العهود فى سورة الأنفال ، وافتتحت سورة التوبة بتفصيل الكلام فيها .

(٤) ذكر فى سورة الأنفال الترغيب فى إنفاق المال فى سبيل الله ، وجاء ذلك بأبلغ وجه فى براءة .

(٥) جاء فى الأولى ذكر المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ـ وفصل ذلك فى الثانية أتمّ تفصيل .

(تنبيه) لم يكتب الصحابة ولا مَن بعدهم البسملة فى أولها ، لأنها لم تنزل معها كما نزلت مع غيرها من السور ، وقيل رعاية لمن كان يقول إنها مع الأنفال سورة واحدة . وقيل لأنها جاءت لرفع الأمان والابتداء بالبسملة مذكورا فيها اسم الله موصوفا بالرحمة يوجبه .

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ ، فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ، وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ ، وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) .

شرح المفردات

البراءة : من برئ من الدين، إذا أسقطعنه، ومن الذنب ونحوه: إذا تركه وتباعد عنه، والمعاهدة : عقد العهد بين فريقين على شروط يلتزمونها ، وكان كل فريق يضع يمينه فى يمين الآخر ويوثقونها بالأيمان ، ومن جراء ذلك سميت أيمانا فى قوله تعالى :

(إِنَّهُمْ لاَ أَيْمَانَ لَهُمْ) أى لا عهود لهم ، والسياحة فى الأرض : الانتقال والتجوال فيها ، ويراد بها هنا حرية الانتقال مع الأمان مدة أربعة أشهر لايعرض المسلمون لهم فيها بقتال ، وقوله : غير معجزى الله ، أى لاتفوتونه بالهرب والتحصن ، والخزى : الذل والفضيحة بما فيه عار ، والأذان : الإعلام بما ينبغى أن يعلم ، ويوم الحج الأكبر : هو يوم النحر الذى تنتهى فيه فرائض الحج ، ويجتمع فيه الحاج لإتمام مناسكهم ، ثم لم ينقصوكم شيئا ، أى من شروط الميثاق فلم يقتلوا أحدا منكم ولم يضروكم ، ولم يظاهروا : أى لم يعاونوا .

المعنى الجملى

بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين بالإسلام وأقام بناء دعوته على أساس البراهين المقنعة ، ومنع الإكراه على الدخول فيه والحمل على قبوله بالقوة ، فقاومه المشركون وفتنوا المؤمنين بالتعذيب والاضطهاد لصدّهم عنه ، ولم يكن أحد يأمن على نفسه من القتل أو التعذيب إلا بتأمين حليف أو قريب ، فهاجر منهم عدد كثير إلى بلاد الحبشة وإلى جهات كثيرة مرة بعد أخرى ، ثم اشتد إيذاؤهم للرسول حتى ائتمروا فى دار الندوة علناً على حبسه أو نفيه أو قتله ، ورجحوا آخر الأمر قتله ، فأمره الله بالهجرة إلى المدينة وصار يتبعه من أصحابه من قدر عليها ، وقد وجدوا بها أنصارا يحبون الله ورسوله ، ويحبون من هاجر إليهم ويؤثرونهم على أنفسهم ، وكانت الحال بينهم وبين المشركين حال حرب بطبيعة الحال ومقتضى المألوف فى ذلك العصر ، وعاهد النبى صلى الله عليه وسلم أهل الكتاب من اليهود والنصارى على السّلم والتعاون بينهم ، فخانوا ونقضوا العهد وظاهروا المشركين عليه ، وعاهد المشركين فى الحديبية على السّلم والأمان عشر سنين بشروط كانت منتهى السخاء عن قوة وعزة ، لا عن ضعف وقلة ، حبًّا للسلم ونشر الدعوة بالإقناع والحجة فدخلت خزاعة فى عهده صلى الله عليه وسلم كما دخلت بكر فى عهد قريش ،

ثم عدت الثانية على الأولى وأعانتها قريش بالسلاح ناقضين العهد ، فكان ذلك سبب عودة الحرب بينه وبينهم إلى أن كان فتح مكة ، وبه خضدت شوكة الشرك وذل أهله ، ولكنهم ما زالوا يحاربون حيث قدروا ، ودلت التجارب أنه لا عهود لهم ولا يؤمن غدرهم فى حالى القوة والضعف ، ولا يستطيع المسلمون أن يعيشوا معهم بحكم المعاهدات ويأمن كل شر الآخر ما داموا على شركهم ، ولا سيما وقد سبقهم إلى نقض العهد من كانوا أجدر منهم بالوفاء وهم أهل الكتاب .

من جرّاء هذا جاءت هذه السورة بنبذ عهودهم المطلقة وإتمام عهودهم المؤقتة لمن استقام عليها ، فحاربهم النبى صلى الله عليه وسلم وتمّ له الغلب عليهم ومحا الشرك من جزيرة العرب ودانت كلها للإسلام « إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الْإِسْلَامُ » .

الإيضاح

(براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين) أى هذه براءة آتية من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين ، كما يقال: هذا كتاب من فلان إلى فلان. ونسبه إلى الله ورسوله من قِبَل أنه تشريع جديد شرعه الله وأمر رسوله بتنفيذه ونسب معاهدة المشركين إلى جماعة المؤمنين وإن كان الرسول هو الذى عقد العهد ، لأنه عقده بوصف كونه الإمام والقائد لهم ، وهو عقد ينفذ بمراعاتهم له وعملهم بموجبه ، فجمهور المؤمنين هم الذين ينفذون أحكام المعاهدات ، وللقوّاد من أهل الحل والعقد الاجتهاد فيما لا نص فيه منها ومن أحكام الحرب والصلح ونحوها

قال البغوى : لما خرج النبى صلى الله عليه وسلم إلى تبوك كان المنافقون يرجفون الأراجيف ، وجعل المشركون ينقضون عهودا كانت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمره الله بنقض عهودهم ، وذلك قوله عز وجل : « وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ» اهـ . قال الحافظ ابن كثير : اختلف المفسرون فى هذه الآية اختلافا كثيراً ، فقال قائلون : هذه الآية لذوى العهود المطلقة غير المؤقتة ، ومن

له عهد دون أربعة أشهر ، فيكمل له أربعة أشهر ، فأما من كان له عهد مؤقت فأجله إلى مدته مهما كانت ، لقوله تعالى : « فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ » ولما سيأتى فى الحديث : « ومن كان بينه و بين رسول الله عهد فعهده إلى مدته » وهذا أحسن الأقوال وأقواها واختاره ابن جرير رحمه الله اهـ .

(فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر) هذا خطاب من الله للمؤمنين مبيّن لما يجب أن يقولوه للمشركين الذين برئ الله ورسوله من عهودهم ، أى قولوا لهم : سيروا فى الأرض وأنتم آمنون لايتعرض لكم أحد من المسلمين بقتال مدة أربعة أشهر تبتدئ من عاشر ذى الحجة من سنة تسع للهجرة وهو يوم النحر الذى بُلّغوا فيه هذه الدعوة ، وتنتهى فى عاشر شهر ربيع الآخر من سنة عشر .

والحكمة فى تحديد هذه المدة أن يكون لديهم فسحة من الوقت للنظر والتفكر فى عاقبة أمرهم ، والتخيير بين الإسلام والاستعداد للقتال إذا هم أصروا على شركهم وعدوانهم ، وهذا منتهى ما يكون من السماحة والرحمة والإعذار إلى أعدى أعدائه المحاربين ، حتى لايقال إنه أخذهم على غرة .

(واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين) أى واعلموا أنكم لن تعجزوا الله ولن تفوتوه فتجدوا مهرباً من الله لسياحتكم إذا أنتم أصررتم على شرككم وعدوانكم لله ورسوله ، بل سيسلط المؤمنين عليكم ويؤيدهم بنصره الذى وعدهم به ، والعاقبة للمتقين ، فقد جرت سنة الله بخزى الكافرين منكم ومن غيركم فى معاداتهم وقتالهم لرسله فى الدنيا والآخرة كما جاء فى مشركى مكة ومن نحا نحوهم . « كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ، فَأَذَاقَهُمُ اللَّهُ الْخِزْيَ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ » .

(وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برىء من المشركين ورسوله) أى هذا إعلام من الله ورسوله بالبراءة من عهود المشركين وسائر خرافات

شركهم وضلالهم فى وقت يسهل فيه ذلك التبليغ والإعلام ، وهو يوم الحج الأكبر يوم النحر الذى فيه تنتهى فرائض الحج، و يجتمع الحجاج لإتمام مناسكهم وسننهم فى منى.

ثم أكد ما يجب أن يبلغوه بلا تأخير بقوله :

(فإن تبتم فهو خير لكم) أى قولوا لهم : فإن تبتم ورجعتم عن شرككم وعن خيانتكم وغدركم بنقض العهد وقبلتم هدى الإسلام ، فذلك خير لكم فى الدنيا والآخرة ، لأن فى هدايته سعادتكم فيهما .

(و إن توليتم فاعلموا أنكم غير معجزى الله) أى و إن أعرضتم عن إجابة الدعوة إلى التوبة فاعلموا أنكم غير سابقيه سبحانه ولا فائتيه ، فلن تفلتوا من حكم سننه ووعده لرسله وللمؤمنين بالنصر والغلب كما قال : « وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ » .

(و بشر الذين كفروا بعذاب أليم) أى و بشر أيها الرسول الكريم من جحد رسالتك ولم يؤمن بالله وملائكته واليوم الآخر بعذاب أليم فى الآخرة .

وهذا من أنباء الغيب التى لاتعلم إلا بوحى من الله عز وجل ، واستعمال البشارة فيما يسوء و يكره ضرب من التهكم كما لا يخفى :

(إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم) أى لا تمهلوا الناكثين للعهود فوق أربعة أشهر ، إلا الذين عاهدتموهم ثم لم ينكثوا عهدهم ، فلا تجروهم مجرى الناكثين فى المسارعة إلى قتالهم ، بل أتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم ، بشرط ألا ينقصوا شيئا من شروط الميثاق ولا يضاروكم ، ولا يعاونوا عليكم أحدا من أعدائكم ، كما عدت بنو بكر على خزاعة فى غيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فظاهرتهم قريش بالسلاح .

وفى ذلك إيماء إلى أن الوفاء بالعهد من فرائض الإسلام ما دام العهد معقودا ، و إلى أن العهد المؤقت لايجوز نقضه إلا بانتهاء وقته ، و إلى أن من شروط وجوب الوفاء به محافظة العدو المعاهد لنا على ذلك العهد بحذافيره بنصه وفحواه ، فإن نقص شيئا منه وأخلّ بغرض من أغراضه عدّ ناقضا له كما قال : (ثم لم ينقصوكم شيئا)

ويدخل فى الإخلال مظاهرة أحد من الأعداء على المسلمين ، لأن المقصد من المعاهدات ترك قتال كل من الفريقين المتعاهدين للآخر وحرية التعامل بينهما .

(إن الله يحب المتقين) أى الذين يتقون نقض العهد وخفر الذمم وسائر المفاسد التى تخل بالنظام وتمنع جريان العدل بين الناس .

وفى ذلك إيماء إلى أن مراعاة حقوق العهد تدخل فى حدود التقوى ، و إلى أن التسوية بين الوفىّ والغادر منافية لذلك و إن كان المعاهد مشركا .

وقد ورد فى تنفيذ أمر الله بهذه البراءة والأذان بها : أى التبليغ العلنى أحاديث فى الصحاح أشهرها أن النبى صلى الله عليه وسلم جعل أبا بكر رضى الله عنه أميرا على الحج سنة تسع وأمره أن يبلغ المشركين الذين يحضرون الحج أنهم يمنعون منه بعد ذلك العام ، ثم أردفه بعلىّ كرم الله وجهه ليبلغهم عنه نبذ عهودهم المطلقة و إعطاءهم مهلة أربعة أشهر لينظروا فى أمرهم ، وأن العهود المؤقتة أجلها نهاية وقتها ، ويتلو عليهم الآيات المتضمنة لنبذ العهود وما يتعلق بها من أول سورة براءة ، وهى نحو أربعين آية.

وقد كان من عادة العرب أن العهود ونبذها إنما تكون من عاقدها أو أحد عصبته القريبة ، وأن عليّا اختص بذلك مع بقاء إمارة الحج لأبى بكر ، وكان يساعده على ذلك بعض الصحابة كأبى هريرة .

روى البخارى ومسلم عن أبى هريرة قال : بعثنى أبو بكر فى تلك الحجة فى مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى : ألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ثم أردف رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلى بن أبى طالب وأمره أن يؤذن ببراءة ، وألا يحج بعد العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان .

فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ

وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ، إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) .

شرح المفردات

انسلاخ الأشهر : انقضاؤها والخروج منها ، يقال : سلخ فلان الشهر وانسلخ منه ، قال تعالى : « وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ » وقال شاعرهم :

إذا ما سلخت الشهر أهلكت مثله كفى قاتلى سلخى الشهور و إهلالى

والحرم : واحدها حرام ، وهى الأشهر التى حرم الله فيها قتالهم فى الأذان والتبليغ بقوله : « فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ » وقوله : وخذوهم ، أى بالأسر ، والأخيذ : الأسير ، واحصروهم : أى امنعوهم من الخروج واحبسوهم ، والمرصد : الموضع الذى يرقب فيه العدو ، يقال رصدت فلانا أرصده : إذا ترقبته ، أى اقعدوا لهم على كل مرصد ، واستجاره : طلب جواره ، أى حمايته وأمانه ، وقد كان من عادات العرب حماية الجار والدفاع عنه حتى يسمون النصير : جارا ، وأجره : أى أمّنه ، ومأمنه : أى مسكنه الذى يأمن فيه، وهو دار قومه ، وقوله: لا يعلمون أى ما الإسلام وما حقيقته ، فلابد من إعطاء الأمان حتى يفهموا الحق ولا يبقى لهم معذرة .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه الأذان العام بالبراءة من عهود المشركين وسائر خرافاتهم وضلالاتهم على الوجه الذى سبق تفصيله ، قفّى على ذلك بذكر ما يجب أن يفعله المسلمون معهم حين انقضاء الأجل المضروب لهم والأمان الذى أعطى لهم للضرب فى الأرض .

الإيضاح

(فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد) أى فإذا انقضت الأشهر الأربعة التى حرم عليكم فيها قتال المشركين ، فافعلوا معهم كل ماترونه موافقا للمصلحة من تدابير الحرب وشئونها لأن الحال بينكم و بينهم عادت إلى حال الحرب بانقضاء أجل التأمين الذى منحتموه ، وذلك بعمل أحد الأمور الآتية :

(١) قتلهم فى أى مكان وجدوا فيه من حلّ وحرم .

(٢) أخذهم أسارى ، وقد أبيح هنا الأسر الذى حظر فى سورة الأنفال بقوله : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ » لأن الإثخان وهو الغلب والقوة والسيادة قد وجد .

(٣) حصرهم وحبسهم حيث يعتصمون بمعقل أو حصن ، بأن يحاط بهم و يمنعوا من الخروج والانفلات حتى يسلموا و ينزلوا على حكمهم بشرط ترضونه أو بدون شرط .

(٤) القعود لهم كل مرصد : أى مراقبتهم فى كل مكان يمكن الإشراف عليهم فيه ، ورؤية تجوالهم وتقلبهم فى البلاد .

وهذه الآية تسمى آية السيف ، إذ جاء الأمر فيها بالقتال وقد كان مؤجلا ومنسأ إلى أن يقوى المسلمون ، وكان الواجب عليهم فى حال الضعف الصبر على الأذى .

(فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم) أى فإن تابوا عن الشرك الذى يحملهم على عداوتكم وقتالكم ودخلوا فى الإسلام بأن نطقوا بالشهادتين ، وأقاموا الصلاة المفروضة كما تقيمونها فى الأوقات الخمسة ، والصلاة مظهر الإيمان وأكبر أركانه ، وهى مطلوبة من الغنى والفقير والأمير والمأمور ، وهى حق الله على عباده تزكى أنفسهم وتهذب أخلاقهم وتؤهلهم للقيام بحقوق عباده . « إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ » وآتوا الزكاة المفروضة فى أموال

الأغنياء للفقراء والمصالح العامة - فخلوا سبيلهم واتركوا لهم طريق حريتهم بالكف عن قتالهم إذا كانوا مقاتلين ، وبالكف عن حصرهم إذا كانوا محاصرين ، وبالكف عن رصد مسالكهم إلى البيت الحرام وغيره إذا كانوا مراقبين ، والله يغفر لهم ما سبق من الشرك وغيره من سيئاتهم ويرحمهم فيمن يرحم من عباده ، وقد جاء فى الأثر « الإسلام يَجُبُّ ما قبله » .

وفى الآية إيماء إلى أن إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة يوجبان لمن يؤديهما حقوق المسلمين من حفظ الدم والمال إلا بما يوجب عليه الشرع من جناية تقتضى حدا معلوما أو جريمة توجب تعزيرا أو تغريما .

روى الشيخان عن عبد الله بن عمر مرفوعا « أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ، فإذا فعلوا ذلك عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ، وحسابهم على الله » .

والخلاصة — إن اشتراط الأشياء الثلاثة للكف عن قتال المشركين للتحقق من دخولهم فى جماعة المسلمين بالفعل ، والتزامهم شرائع الإسلام وإقامة شعائره ، إذ مقتضى الشهادة الأولى ترك عبادة غير الله ، ومقتضى الشهادة الثانية طاعة الرسول فيما يبلّغه عن الله تعالى ، واكتفى من أركان الإسلام بالصلاة التى تجب فى اليوم والليلة خمس مرات ، لأنها الرابطة الدينية الروحية الاجتماعية بين المسلمين ، وبالزكاة لأنها الرابطة المالية الاجتماعية ، فمن أقامهما كان أجدر بإقامة غيرهما .

(وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله ثم أبلغه مأمنه) أى اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم إلا من طلب منكم الأمان ليعلم ما أنزل الله وأمر به من دعوة الإسلام ، فإن بعض المشركين لم تبلغهم الدعوة بلاغا مقنعا ولم يسمعوا شيئا من القرآن ، أولم يسمعوا منه ما تقوم به الحجة عليهم ، فأعرضوا وعادَوْا الداعى وقاتلوه ، لأنه جاء بتفنيد ماهم عليه من الشرك ، وتسفيه ما كان عليه آباؤهم منه .

والخلاصة — وإن استأمنك أيها الرسول أحد من المشركين لكى يسمع كلام

الله ويعلم منه حقيقة ما تدعو إليه ، أو ليلقاك وإن لم يذكر سببا ـ فأجره وأمّنه على نفسه وأمواله لكى يسمع أو لكى يراك ، فإن هذه فرصة للتبليغ والاستماع ، فإن اهتدى وآمن عن علم واقتناع فذاك ، وإلا فالواجب أن تبلغه المكان الذى يأمن به على نفسه ويكون حرّا فى عقيدته ، حيث لايكون للمسلمين سلطان عليه ، وتعود حال الحرب إلى ما كانت عليه من غير غدر .

والمراد بالسماع أن يسمع المقدار الذى تقوم به الحجة ويتبين به بطلان الشرك وحقيقة التوحيد والبعث وصدق الرسول فى تبليغه عن الله ، فإنه إذا ألقى إليه السمع لايلبث أن يظهر له الحق إذا لم تصده العصبية والعدوان للداعى ، فإن لم يفعل ذلك كان له شأنه وكانت له حريته ، ولكنه يمنع من مساكنة المسلمين فى دار الإسلام وهو على هذه الحال .

(ذلك بأنهم قوم لايعلمون) أى إن ما ذكر من إجارة المستجير من المشركين إلى أن يسمع كلام الله من جراء أنهم قوم جاهلون لايدرون ماالكتاب وما الإيمان، وما أعرضوا إلا عن جهل وعصبية واغترار بالقوة وإصرار على الجفوة . فإذا هم شعروا بضعفهم وصدق وعد الله بنصر المؤمنين عليهم ، وأعدهم ذلك للعلم بما كانوا يجهلون ، وطلبوا الأمان لهذا السبب أو لغرض آخر يترتب عليه إمكان تبليغهم الدعوة وإسماعهم كلام الله ـ أجيبوا إلى ذلك لأن هذه الطريق المثلى لتعليمهم وهدايتهم ، والرسول صلوات الله عليه إنما أرسل مبشرا ونذيرا .

وفى الآية إيماء إلى أن التقليد فى الدين غير كاف ، وأنه لابد من النظر والاستدلال ، لأنه لو كان كافيا لوجب ألايهمل الكافر ، بل يقال له : إما أن تؤمن وإما أن نقتلك ، فأمهلناه ليحصل له النظر والاستدلال ، فإن ظهر على المشرك علامات القبول للحق ببحثه عن الدليل والتفكير فيه أمهل وترك ، وإن ظهر أنه معرض عن الحق لم يلتفت إليه ووجب تبليغه إلى مأمنه .

كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ ؟ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لاَ يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً ، يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨)

شرح المفردات

ظهر عليه : غلبه وظفر به ، ورقب الشيء : رعاه وحاذره لأن الخائف يرقب العقاب ويتوقعه ، ومنه فلان لا يرقب الله فى أموره : أى لا ينظر إلى عقابه ، فيركب رأسه فى المعصية ، والإلّ : القرابة . قال ابن مقبل :

أفسد الناسَ خُلوفٌ خَلَفوا قطعوا الإلَّ وأعراق الرَّحِم

والذمة والذمام : العهد الذى يلزم من ضيعه الذم ، وكان خفر الذمام ونقض العهد عندهم من العار ، فاسقون : أى خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء ، من قولهم : فسقت الرطبة إذا خرجت من قشرتها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر براءة الله ورسوله من المشركين وإمهالهم أربعة أشهر يسيحون فى الأرض أحرارا ، ثم ذكر دعوتهم إلى التوبة من الشرك وإنذارهم سوء العاقبة ، ثم أمر بما يترتب على النبذ وهو عود حال الحرب معهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم التى وقتت بها ، بمناجزة المشركين بكل أنواع القتال المعروفة فى ذلك العصر من قتل وأسر وحصر وقطع طرق الوصول عليهم ، إلا من يستجير بالرسول ليسمع كلام الله فإنه يجار حتى يسمعه — قفى على ذلك ببيان أن هذا النبذ وما يترتب عليه إنما هو معاملة للأعداء بمثل ما عاملوا به المؤمنين أو دونه .

الإيضاح

(كيف يكون للمشركين عهد عند الله وعند رسوله) المراد من المشركين الناكثون للعهد لأن البراءة إنما هى فى شأنهم ، أى بأى حال يكون لهؤلاء المشركين عهد معتدّ به عند الله وعند رسوله يستحق أن يراعى و يحافظ عليه إلى إتمام المدة بحيث لايتعرض لهم على حسبه قتلا وأخذا ، وحالهم مابين فى الآية التالية - إن يظهروا عليكم لايرقبوا فيكم إلا ولا ذمة .

(إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام) أى كيف يكون للمشركين عهد مع إضمار الغدر فيما وقع من العهود إلا الذين عاهدتم عند المسجد الحرام وهم بنو كنانة و بنو ضمرة ، لأنهم ممن كان قد أقام على عهده ولم يدخل فى نقض ما كان بين رسول الله صلى الله عليه وسلم و بين قريش يوم الحديبية من العهد .

(فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم) أى فهؤلاء تربصوا بهم ولا تقتلوهم ما استقاموا لكم على العهد ، إذ لايجوز أن يكون نقضه من قبلكم .

(إن الله يحب المتقين) أى الذين يتقون الغدر ونقض العهد ، وهؤلاء المعاهدون المذكورون هنا: هم المذكورون أوّلا بقوله: إلاالذين عاهدتم من المشركين الخ ، وإنما أعيد ذكره هنا لبيان أنه يجب أن تكون الاستقامة على العهد مرعية من الطرفين المتعاقدين إلى نهاية مدته ، و بيان استباحة نبذ عهد الذين لا يستقيمون للمعاهد لهم إلا عند العجز عن الغدر حتى إذا ما قدروا عليه نقضوا عهده أو نقصوا منه كما فعلت قريش فى نقض عهد الحديبية بمظاهرتهم لحلفائهم من بنى بكر على خزاعة أحلاف رسول الله صلى الله عليه وسلم .

(كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلا ولا ذمة) أى كيف يكون للمشركين غير هؤلاء الذين جربتم وفاءهم - عهد مشروع عند الله مرعى الوفاء عند رسوله - وحالهم المعروفة من أخلاقهم وأعمالهم أنهم إن يظهروا عليكم فى القوة والغلب ، لا يرقبوا الله ولا القرابة فى نقض العهد والميثاق .

والخلاصة — إنه لا عهد لمن كان له عهد وغَدَر فيه ، وكذا من لا عهد له منهم لأنهم لشدة عداوتهم للمؤمنين لم يقيدوا أنفسهم معهم بعهد سلم مطلق ولا مؤقت .

ثم بين ما تنطوى عليه جوانحهم من الضغينة للمؤمنين فقال :

(يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون) أى هم يخادعونكم حال الضعف بما يفوهون به من كلام معسول يرون أنه يرضيكم سواء أكان عهدا أم وعدا أم أيمانا مؤكدة ، وقلوبهم مملوءة ضغنا وحقدا « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ » فهم إن ظهروا عليكم نكثوا العهود وحنثوا بالأيمان وفتكوا بكم بقدر ما يستطيعون .

وإنما يفعلون ذلك لأن أكثرهم خارجون من قيود العهود والمواثيق متجاوزون لحدود الصدق والوفاء ، فليس لهم مروءة رادعة ، ، ولا عقيدة وازعة ، ولا يتعففون عن الغدر وعما يجر إلى سوء الأحدوثة وثلم العرض .

وإنما وصف الأكثر ، لأنهم هم الناكثون الناقضون لعهودهم ، وأقلهم الموفون الذين استثناهم الله تعالى وأمر المؤمنين بالاستقامة لهم ما استقاموا لهم .

اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللهِ ثَمَنًا قَلِيلاً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِهِ ، إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لاَ يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلاَ ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر غلبة الفسق والخروج من الفضائل الفطرية والتقليدية على أكثرهم حتى مراعاة القرابة والوفاء ونحوها مما يمدح عندهم — أردف ذلك بذكر السبب فى هاتين الآيتين .

الإيضاح

(اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا فصدوا عن سبيله) أى استبدلوا بآيات الله الدالة على توحيده بالعبادة ، وعلى الوحى والرسالة وما فيها من الهداية للناس ، وعلى البعث والجزاء على الأعمال ـ ثمنا قليلا من حطام الدنيا ، وهو ماهم فيه من رخاء العيش وكثرة الأموال ، فصدوا بسبب هذا الشراء الخسيس أنفسهم عن الإسلام ومايقتضيه من الوفاء وصدوا غيرهم أيضا ، وجعله قليلا لأنه زائل غير باق وما عند الله باق دائم وهو خير وأبقى ، لأن ما عندهم قليل بالنظر إلى ما عند غيرهم .

روى أن أبا سفيان لما أراد حمل قريش وحلفائها على نقض عهد الحديبية صنع لهم طعاما استمالهم به فأجابوه إلى ما طلب .

(إنهم ساء ما كانوا يعملون) أى قبح عملهم الذى يعملونه من اشتراء الكفر بالإيمان والضلالة بالهدى ، والصد عن دين الله وماجاء به رسوله من البينات والهدى .

(لا يرقبون فى مؤمن إلا ولا ذمة) أى ومن أجل هذا الكفر لا يرعون فى مؤمن يقدرون على الفتك به قرابة تقتضى الود ، ولاذمة توجب الوفاء بالعهد ، ولا ربا يحرم الخيانة والغدر ، فذنب المؤمن عندهم أنه لاينقض عهدا ولا يستحل غدرا ولا يقطع رحما .

(وأولئك هم المعتدون) أى المتجاوزون للغاية القصوى من الظلم ، والعلة فى هذا رسوخهم فى الشرك وكراهتهم للايمان وأهله ، فلا علاج لهم إلا الرجوع عن الكفر والاعتصام بالإيمان والتمسك بفضائل الأخلاق وما يقتضيه الإيمان من صالح الأعمال .

فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ ، وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ

وَطَعَنُوا فِى دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) .

المعنى الجملى

بعد أن أبان سبحانه عداوة المشركين للمؤمنين ـ أردف ذلك بما سيكون من أمرهم بعد ذلك وهو لا يعدو أحد أمرين فصلهما فى هاتين الآيتين .

الإيضاح

(١) (فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم فى الدين) أى فإن رجع هؤلاء المشركون الذين أمرتكم بقتالكم ، عن شركهم بالله إلى الإيمان به وبرسوله وأنابوا إليه وأطاعوه فأقاموا الصلاة أى أدوها بشروطها وأركانها، وآتوا الزكاة المفروضة فهم إخوانكم فى الدين الذى أمركم به ، لهم مالكم وعليهم ما عليكم ، وبهذه الأخوّة يزول كل ما كان بينكم من إحَن وعداوات ، ولا تعارف أجمل من التعارف فى المساجد لإقامة الصلوات وأداء الصدقات بمواساة الغنى للفقير ، وهذه المزية الدنيوية كانوا محرومين منها ، إذ كان بعضهم حربا لبعض إلا ما كان من عهد أو جوار .

(ونفصل الآيات لقوم يعلمون) أى وإنا نبين حجج الله وأدلته على خلقه لقوم يعلمون ما نبين لهم بعد أن نشرحها مفصلة فيفقهونها ، دون الجهال الذين لا يعقلون عن الله بيانه ومحكم آياته .

(٢) (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا فى دينكم فقاتلوا أئمة الكفر) يقال نكث الغزل والحبل : حل الخيوط التى تألف منها وأرجعها إلى أصلها ، والأيمان العهود وقد كان كل من العاقدين للعهدين يضع يمينه فى يمين الآخر .

أى وإن نكث هؤلاء ما أبرمته أيمانهم من الوفاء بالعهد الذى عقدوه معكم ، وعابوا دينكم واستهزءوا به وصدوا الناس عنه ، ومن ذلك الطعن فى القرآن وفى النبى

صلى الله عليه وسلم كما كان يفعل شعراؤهم الذين أهدر النبى صلى الله عليه وسلم دماءهم فقاتلوهم فهم أئمة الكفر وحملة لوائه المقدّمون على غيرهم بزعمهم ، فهم الأجدر بالقتل والقتال .

(إنهم لا أيمان لهم) أى إن عهودهم لا قيمة لها ، فهى مخادعة لسانية لا يقصد الوفاء بها كما قال سبحانه « يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ » فما أسرع ما تنقض إذا وجدت الفرصة سانحة .

(لعلهم ينتهون) أى قاتلوهم رجاء أن ينتهوا بقتالكم إياهم عن الكفر ونكث الأيمان ونقض العهود والعودة إلى قتالكم كلما قدروا عليه .

وفى ذلك إيماء إلى أن القتال لا يكون اتباعا لهوى النفس ، أو إرادة منافع الدنيا من السلب والنهب وإرادة الانتقام ، وهذه ميزة الإسلام ، إذ جعل الحرب ضرورة لإرادة منع الباطل وتقرير الحق .

أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ؟ أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر سبحانه بقتال أئمة الكفر ـ ذكر السبب الذى يبعث على قتالهم ، ولعل الله قد علم أن فى نفس جماعة من المؤمنين كرها لقتال من بقى من المشركين بعد فتح

مكة وظهور الإسلام لأمنهم من ظهورهم عليهم ورجائهم فى إيمانهم ، وعلم أنه يوجد من المنافقين من يزينون لهم ذلك ، والله يريد أن تطهر جزيرة العرب من خرافات الشرك وأدران الوثنية ، ويمحص المؤمنين من النفاق ومثالبه .

من جرّاء هذا أعاد الكرة بإقامة الأدلة على وجوب قتال الناكثين للعهد المعتدين عليهم بالحرب الذين بدءوهم بالقتال وهموا بإخراج الرسول أو حبسه أو قتله .

الإيضاح

(ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة ؟) أى قاتلوا هؤلاء المشركين لأسباب ثلاثة :

(١) إنهم نكثوا الأيمان التى حلفوها لتأكيد عهدهم الذى عقدوه مع النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه على ترك القتال عشر سنين يأمن فيها الفريقان على أنفسهم، ويكونون فيها أحرارا فى دينهم ، لكنهم لم يلبثوا أن ظاهروا حلفاءهم بنى بكر على خزاعة حلفاء النبى صلى الله عليه وسلم ليلا بالقرب من مكة على ماء يسمى الهجير ، وكان هذا من أفظع أنواع الغدر ، ولما علم بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « لا نصرتُ إن لم أنصركم » وتجهز إلى مكة سنة ثمان من الهجرة .

(٢) إنهم هموا بإخراج الرسول صلى الله عليه وسلم من وطنه أو حبسه حتى لا يبلغ رسالته، أو قتله بأيدى عصبة من بطون قريش ليتفرق دمه فى القبائل ، فتتعذر المطالبة به ، وإلى ذلك يشير قوله تعالى : « وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ ، وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ » .

(٣) إنهم بدءوا بقتال المؤمنين فى بدر حين قالوا بعد العلم بنجاة عيرهم : لا ننصرف حتى نستأصل محمدا وأصحابه ونقيم فى بدر أياما نشرب الخمر وتعزف على رءوسنا القيان ، وكذا فى أحد والخندق وغيرهما .

وبعد أن أورد البراهين والحجج الموجبة لقتالهم قال :

(أتخشونهم ؟) أى أبعد هذا كله تتركون قتالهم خوفا منكم وجُبنا ؟ .

(فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين) أى فالله أحق أن تخشوا مخالفة أمره وترك مخالفة عدوه ، إذ المؤمن حق الإيمان لايخشى إلا الله ، لأنه يعلم أنه هو الذى بيده النفع والضر ، ولايقدر أحد على مضرة أو نفع إلا بمشيئته ، فإن خشى غيره بمقتضى سننه تعالى فى أسباب الضر والنفع ، فلا ترجح خشيته على خشية الله ، بأن تحمله على عصيانه ومخالفة أمره ، بل يرجح خشيته تعالى على خشية غيره .

وهذا احتجاج آخر على جماعة المسلمين الذين لايخلو أن يكون بينهم جماعة من المنافقين ومرضى القلوب الذين يكرهون القتال إذا لم توجبه الضرورة كما قال : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ » أو رجاء انتشار الإسلام بدونه بعد فتح مكة والطائف وهدم دولة الشرك .

وخلاصة ما سلف — إنه بعد تلك الحجج التى تقدم ذكرها ، لم يبق من سبب يمنع قتالهم إلا الخشية لهم والخوف من قتالهم ، وخشية الله أحق وأجدر إن كنتم مؤمنين حقا ، كيف وقد نصركم الله عليهم فى مواطن كثيرة مع ضعفكم وقوتهم وقلّتكم وكثرة عديدهم .

وفى الآية إيماء إلى أن المؤمن يجب أن يكون أشجع الناس وأعلاهم همة ولايخشى إلا الله .

وبعد أن أقام الأدلة على وجوب قتالهم ، وفند الشبه المانعة من ذلك ـ أمرهم به أمرا صريحا مع وعده لهم بالنصر وإظهار المؤمنين عليهم ، وهذه العِدَة من أخبار الغيب فى وقعة معينة ، وقد صدق الله وعده فقال :

(قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين) أى قاتلوهم كما أمرتكم ، فإنكم إن فعلتم ذلك يعذبهم الله بأيديكم ويمكنكم من رقابهم قتلا ، ومن صدورهم ونحورهم طعنا ، ويخزهم بذل الأسر والقهر والفقر لمن

لم يقتل منهم ، وينصركم عليهم حتى لاتقوم لهم قائمة بعد هذا ، فلا يعودون إلى قتالكم كما كان شأنهم بعد وقعة بدر ، ويشف صدوركم مما نالوا منكم من الأذى ولم تكونوا تستطيعون دفعه ــ وقد كان فى صدورهم من موجدة القهر والذل ما لاشفاء له إلا بهذا النصر عليهم ــ وهؤلاء المؤمنون هم الذين غدر بهم المشركون كخزاعة وغيرها ممن كانوا فى دار الشرك عاجزين عن الهجرة ، وروى عن ابن عباس أنهم بطون من اليمن وسبأ قدموا إلى مكة وأسلموا فلقوا من أهلها أذى كثيرا ، فبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم يشكون إليه فقال صلى الله عليه وسلم « أبشروا فإن الفرج قريب » .

(ويذهب غيظ قلوبهم) الذى كان قد وقر فيها من غدر المشركين وظلمهم ، ومن طال تأذيه من خصمه ثم مكنه الله منه على أحسن الوجوه وأكملها فإنه يعظم سروره ويصير ذلك سببا لقوة النفس وصدق العزيمة .

وهذا الخزى والتعذيب الذى سينزله بهم لايعمهم ، بل هو خاص بمن استحوذ عليهم الكفر ، فلم يبق فيهم استعداد للإيمان .

(ويتوب الله على من يشاء والله عليم حكيم) أى وأما غيرهم فسيتوب الله عليهم من شركهم ويوفقهم للإيمان ويتقبله منهم ، وهو العليم بما لاتعلمون من استعدادهم فى الحال والاستقبال ، الحكيم فيما يشرع لهم من الأحكام لإقامة دينه وإظهاره على الدين كله .

ومن سننه تعالى تفاوت البشر فى العقائد والأخلاق والأعمال ، وقابلية التحول من حال إلى حال بما يطرأ عليهم من الأسباب والمؤثرات على حسب المقادير الإلهية الثابتة بآيات التنزيل ونظم الاجتماع .

أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللهِ وَلاَ رَسُولِهِ وَلاَ الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ، وَاللهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) .

شرح المفردات

الوليجة : مايلج فى الأمر أو القوم مما ليس منه أو منهم كالدخيلة ، ويطلق على الواحد والكثير ، ويراد بها هنا بطانة السوء من المنافقين والمشركين .

المعنى الجملى

كان الكلام فى الآيات التى قبل هذه فى بيان حال المشركين من مواصلتهم ما بدءوا به من قتال المؤمنين لأجل دينهم ، وقتال المؤمنين لهم على الوجه الذى قامت به الحجج الناصعة على كون المؤمنين على الحق فى هذا القتال ؛ والكلام الآن فى بيان حال جماعة المسلمين وشأنهم فى الجهاد الحق الذى يتوقف عليه تمحيصهم من ضعف الإيمان والهوادة فى حقوق الإسلام .

الإيضاح

(أم حسبتم أن تتركوا ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة) الخطاب هنا لجماعة المسلمين الذين من بينهم منافقون ومرضى القلوب يثبطون عن القتال .

والمعنى — هل جاهدتم المشركين حق الجهاد وأمنتم عودتهم إلى قتالكم كما بدءوكم أول مرة ، وأمنتم نكث من عاهدتم منهم لأيمانهم كما نكثوا من قبل ؟ وهل علمتم أنهم تركوا الطعن فى دينكم وصدّ الناس عنه كما هو دأبهم منذ ظهور الإسلام ؟ وهل نسيتم ما اعتذر به المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى تبوك من أعذار ملفقة كاذبة ، وما كان من تثبيط من خرج منهم معكم عن القتال ؟ أم حسبتم أن تتركوا وشأنكم بغير فتنة ولا امتحان ، ولم يتبين المخلّص من المجاهدين منكم الذين لم يتخذوا لأنفسهم بطانة من المشركين

الذين يحادون الله تعالى بالشرك به ، ويحادون الرسول بالصد عن دعوته ، ويقاتلون المؤمنين أنصار الله ورسوله ــ من المنافقين الذين يطلعون أولئك الولائج على أسرار الملة ويقفونهم على سياسة الأمة كما يفعل المنافقون فى كل زمان .

ونحو الآية قوله : « يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَتَتَّخِذُوا بِطَانَةً مِنْ دُونِكُمْ لاَ يَأْلُونَكُمْ خَبَالاً وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِى صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ » .

وقد عبر سبحانه عن عدم ظهور هؤلاء المجاهدين وتميزهم من المنافقين وضعفاء الإيمان ــ بعدم علمه بهم ، لأن عدم علمه بالشىء دليل على عدم وجوده .

ولا يظهر هؤلاء الممتازون إلا بالابتلاء بالشدائد كما جاء فى قوله : « أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لاَيُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » .

(والله خبير بما تعملون) الآن وبعد ذلك وقبله ، محيط بكل شىء علما ، وقد مضت سنته تعالى بأن التكليف الذى يشق على الأنفس هو الذى يمحص ما فى القلوب ويطهر السرائر بقدر ما فيها من حسن الاستعداد ، ويبرز السرائر الخبيثة ويظهر سوء استعدادها .

وخلاصة المعنى — أظننتم أن تتركوا قبل أن يتم التمحيص والتمييز بين الصادقين فى جهادهم والكاذبين فاسدى السريرة ومتخذى الوليجة ، وهو لم يعلم الصادقين فى الجهاد لأنهم لم يتميزوا من غيرهم بالفعل ، وما لايعلم الله وجوده فلا وجود له ، إذ لايخفى عليه شىء من أمركم ، وهو الخبير بكل ما تعملون .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ ، وَفِى النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ (١٧)

إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللهِ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللهَ ، فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨)

شرح المفردات

المساجد : واحدها مسجد، وهومكان السجود ثم صار اسما للبيت الذى يعبد فيه الله وحده كما قال : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا » وعمارة المسجد : تطلق تارة على لزومه والإقامة فيه للعبادة أو لخدمته بتنظيفه أو ترميمه أو نحو ذلك ، وتطلق أخرى على زيارته للعبادة فيه ، ومنها النسك المخصوص المسمى بالعمرة .

المعنى الجملى

بعد أن فتح المسلمون مكة وأدال الله للتوحيد من الشرك وللحق من الباطل ، وزالت ولاية المشركين عن المسجد الحرام وطهره الرسول صلى الله عليه وسلم مما كان فيه من الأصنام ، بقى عليه أن يطهره من العبادات الباطلة التى كان المشركون يأتونها فيه ويبين لهم أن المسلمين أحق به منهم ، ومن ثم آذنهم بنبذ عهوهم وأمر عليّا أن يتلو عليهم أوائل سورة براءة على مسامع وفودهم يوم الحج الأكبر من سنة تسع للهجرة، وكان مما يتضمنه هذا البلاغ العام أن يعلموا أن عبادتهم الشركية ستمنع من المسجد الحرام بعد ذلك العام ، فنادى علىّ وأعوانه فى يوم النحر بمنى : لايحج بعد هذا العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

وإنما أمهلهم هـذا العام من قِبَل أن فيهم أرباب عهد مع المسلمين ، كان من شروطه ألا يمنع أحد الفريقين الآخر من دخول المسجد الحرام ـ إلى أنه كان يتعذر منع من لاعهد لهم بدون قتال فى أرض الحرم ، إذ لايمكن التمييز بين المشرك والمسلم ولا المعاهد من غيره إلا بعد وصولهم إلى البيت وشروعهم فى الطواف فيه .

لهذا كله ناسب أن يذكر بعد نبذ العهود وإعلام جماهيرهم به قبل تنفيذه بزمن

منع عبادة الشرك من المسجد الحرام وإبطال ما كان المشركون يدّعونه ويفخرون به من حق عمارته ، مع تيئيسهم من الاشتراك فيها ، وهذا هو ما تضمنته الآيتان الكريمتان المذكورتان هنا .

روى عن ابن عباس أنه قال : لما أُسر العباس يوم بدر عيّره المسلمون بالكفر وقطيعة الرحم وأغلظ له علىّ فى القول ، فقال العباس : مالكم تذكرون مساوينا ولاتذكرون محاسننا ! فقال علىّ كرم الله وجهه : ألكم محاسن ؟ فقال نعم : إننا لنعمر المسجد الحرام ونحجب الكعبة ونسقى الحاج فأنزل الله : (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله) الآية .

الإيضاح

(ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) أى ما كان من شأن المشركين ولا مما ينبغى لهم أن يعمروا مساجد الله التى منها المسجد الأعظم وهو بيته الحرام بالإقامة فيه للعبادة أو الخدمة والولاية عليه ، ولا أن يزوروه حجاجا أو معتمرين ، وقد شهدوا على أنفسهم بالكفر قولا وعملا بعبادتهم للأصنام والاستشفاع بها والسجود لما وضعوه منها فى البيت عقب كل شوط من طوافهم وقولهم حينئذ : لبيك لاشريك لك ، إلا شريكا هو لك ، تملكه وما ملك .

إذ فى عملهم هذا جمع بين الضدين ، فإن عمارة البيت الحسية إنما تكون لعمارته المعنوية بعبادته تعالى وحده ، وذلك لايقع إلا من المؤمن الموحد لكنهم يشركون به غيره ويساوونه ببعض خلقه فى العبادة .

وخلاصة ذلك — إنهم يجمعون بين أمرين لايعقل الجمع بينهما على وجه صحيح عمارة البيت الحرام بزيارته للحج أو العمرة ، والكفر بربه بمساواته ببعض خلقه من لأاصنام والأوثان .

وقوله : شاهدين على أنفسهم ، أى إنهم كفروا كفرا صريحا معترفا به لا تمكن المكابرة فيه .

والمراد بالعمارة الممنوعة عن المشركين للمساجد الولاية عليها والاستقلال بالقيام بمصالحها كأن يكون الكافر ناظرا للمسجد وأوقافه ، أما استخدام الكافر فى عمل لاولاية فيه كنحت الحجارة والبناء والنجارة فلا يدخل فى ذلك .

وللمسلمين أن يقبلوا من الكافر مسجدا بناه كافر أو أوصى ببنائه أو ترميمه إذا لم يكن فى ذلك ضرر دينى ولا سياسى ، كما لو عرض اليهود الآن على المسلمين أن يعمروا المسجد الأقصى بترميم ما كان قد تداعى من بنائه ، أو بذلوا لذلك مالا لم يقبل منهم ، لأنهم يطمعون فى الاستيلاء على هذا المسجد ، فربما جعلوا ذلك ذريعة لادعاء حق لهم فيه .

(أولئك حبطت أعمالهم) أى أولئك المشركون الكافرون بالله وبما جاء به رسوله قد بطلت أعمالهم التى يفخرون بها من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج وقرى الضيف وصلة الرحم ونحو ذلك مما كانوا يعملونه فى دنياهم ، فلم يبق له أثر ما فى صلاح أنفسهم ما داموا مقيمين على الشرك ومفاسده .

ونحو الآية قوله : « وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ » وقوله : «وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ » .

(وفى النار هم خالدون) أى وهم مقيمون فى دار العذاب إقامة خلود وبقاء لكفرهم الذى أحبط أحسن أعمالهم ودسّى أنفسهم حتى لم يبق لها أدنى استعداد لجوار ربهم فى دار الكرامة والنعيم .

(إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) أى إن المستحقين لعمارة المساجد هم الجامعون بين الإيمان بالله على

الوجه الذى بينه فى كتابه من توحيده واختصاصه بالعبادة والتوكل عليه ، والإيمان باليوم الآخر الذى يحاسب الله فيه عباده ويجزى كل نفس ما كسبت ، مع إقامة الصلاة المفروضة على وجه جامع بين أركانها وآدابها وتدبر تلاوتها وأذكارها ، وبذا تكسب من يقيمها مراقبة ربه وخشيته والخشوع إليه ، وإعطاء زكاة الأموال لمستحقيها من الفقراء والمساكين ، وخشية الله دون غيره مما لا ينفع ولا يضر كالأصنام وغيرها مما عبد من دون الله خوفا من ضرره أو رجاء نفعه .

(فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) أى فأولئك الذين يجمعون بين الأركان الهامة من أركان الإسلام هم الذين يرجون أن يكونوا من المهتدين إلى ما يحب الله ويرضيه من عمارة المساجد حسا ومعنى على حسب سننه تعالى فى أعمال البشر وتأثيرها فى نفوسهم ، وبذا يستحقون عليها الجزاء فى جنات النعيم ، لا أولئك المشركون الذين يجمعون بين أضدادها من الإيمان بالطاغوت والشرك بالله والكفر بما جاء به رسوله ، وينفقون أموالهم للصد عن سبيل الله ، ومنع الناس من الإسلام .

هذا وقد ورد فى عمارة المساجد أحاديث كثيرة ، فقد روى الشيخان والترمذى عن عثمان رضى الله عنه أنه لما بنى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولامه الناس قال : إنكم أكثرتم وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « من بنى لله مسجدا يبتغى به وجه الله بنى الله له بيتا فى الجنة » .

وروى أحمد عن ابن عباس مرفوعا « من بنى لله مسجدا ولو كمَفْحَص (الموضع الذى تفحص التراب عنه وتكشفه لتبيض فيه) قطاة لبيضها ـ بنى الله له بيتا فى الجنة » .

وروى الشيخان وأبو داود وابن ماجة : أن امرأة كانت تقُمّ المسجد ـ تكنسه ـ فماتت ، فسأل عنها النبى صلى الله عليه وسلم فقيل له ماتت ، فقال : أفلا كنتم آذنتمونى بها لأصلى عليها ؟ دلونى على قبرها ، فأتى قبرها فصلى عليها .

وروى أحمد والترمذى وابن ماجة والحاكم عن أبى سعيد قال : قال رسول الله

صلى الله عليه وسلم : « إذا رأيتم الرجل يعتاد المساجد فاشهدوا له بالإيمان » وتلا (إنما يعمر مساجد الله) » الآية .

أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ؟ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) .

شرح المفردات

السقاية : الموضع الذى يسقى فيه الماء فى المواسم وغيرها ، وسقاية العباس : موضع بالمسجد الحرام يستقى فيه الناس ، وهو حجرة كبيرة فى جهة الجنوب من بئر زمزم لا تزال ماثلة إلى الآن ، وقد يراد بالسقاية الحرفة كالحجابة وهى سدانة البيت ، والسقاية والحجابة أفضل مآثر قريش وقد أقرهما الإسلام ، وفى الحديث : « كل مأثرة من مآثر الجاهلية تحت قدمىّ إلا سقاية الحاج وسدانة البيت » .

وقد كانت قريش تسقى الحاج الزبيب المنبوذ فى الماء ، وكان يليها العباس ابن عبد المطلب فى الجاهلية والإسلام .

المعنى الجملى

هذه الآيات مكملة لما قبلها مبينة أن عمارة المسجد الحرام للمسلمين دون المشركين، وأن إسلامهم أفضل مما كان يفخر به المشركون من عمارة المسجد الحرام وسقاية الحاج فيه .

روى مسلم وأبو داود عن النعمان بن بشير قال : « كنت عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم فى نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما أبالى ألا أعمل لله عملا بعد الإسلام إلا أن أسقى الحاج ، وقال آخر بل عمارة المسجد الحرام ، وقال آخر بل الجهاد فى سبيل الله خير مما قلتم ، فزجرهم عمر وقال : لاترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ وذلك يوم الجمعة ـ ولكن إذا صليت الجمعة دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم لأستفتيه فيما اختلفتم فيه ، فدخل بعد الصلاة فاستفتاه فأنزل الله (أجعلتم سقاية الحاج ـ إلى قوله ـ والله لايهدى القوم الظالمين) » .

الإيضاح

(أجعلتم سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ؟) الخطاب فى الآية للمؤمنين الذين تنازعوا ـ أىّ الأعمال أفضل ـ والمراد ـ إنه لاينبغى أن تجعلوا أهل السقاية والعمارة فى الفضيلة كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد فى سبيل الله ، فإن السقاية والعمارة و إن كانتا من أعمال البر والخير فأصحابهما لايدانون أهل الإيمان والجهاد فى علو المرتبة وشرف المقدار ، وقد صرح بهذا فى قوله :

(لايستوون عند الله) أى لايساوى الفريق الأول الفريق الثانى لافى صفته ولا فى عمله فى حكم الله ولا فى مثوبته وجزائه عليه لا فى الدنيا ولا فى الآخرة ، فضلا عن أن يفضله كما يزعم كبراء مشركى قريش الذين كانوا يتبجحون بخدمة البيت و يستكبرون على الناس بها .

(والله لايهدى القوم الظالمين) أى لايهديهم إلى الحق فى أعمالهم ولا إلى الحكم العدل فى أعمال غيرهم ، إذ ليس من سننه تعالى فى أخلاق البشر وأعمالهم أن يهدى الظالم إلى شىء من ذلك ، ومن أقبح الظلم تفضيل خدمة حجارة البيت وحفظ مفتاحه وسقاية الحاج على الإيمان بالله وحده ، إذ به تطهر الأنفس من أدناس الشرك وخرافاته ، وعلى الإيمان باليوم الآخر الذى يزع النفس عن البغى والظلم و يحبب

إليها الحق والعدل ، و يرغبها فى الخير وعمل البر ابتغاء مرضاة الله لا للفخر والرياء ، وعلى الجهاد فى سبيل الله بالنفس والمال لإحقاق الحق و إبطال الباطل .

ثم بين سبحانه مراتب فضلهم إثر بيان عدم استوائهم هم والمشركين الظالمين فقال :

(الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله) أى هم أعظم درجة وأعلى مقاما فى مراتب الفضل والكمال فى حكم الله وأكبر مثوبة من أهل سقاية الحاج وعمارة المسجد الذين رأى بعض المسلمين أن عملهم إياهما من أفضل القربات بعد الإسلام .

فالذين نالوا فضل الهجرة والجهاد بنوعيه النفسى والمالى أعلى مرتبة وأعظم كرامة ممن لم يتصف بهما كائنا من كان ، ويدخل فى ذلك أهل السقاية والعمارة .

(وأولئك هم الفائزون) أى وأولئك المؤمنون المهاجرون المجاهدون هم الفائزون بمثوبة الله وكرامته دون من لم يكن مستجمعا لهذه الصفات الثلاث و إن سقى الحاج وعَمَرَ المسجد الحرام ، فإن ثواب المؤمن على هذين العملين دون ثوابه على الهجرة والجهاد ، ولا ثواب للكافر عليهما فى الآخرة ، فإن الكفر بالله ورسله واليوم الآخر يحبط الأعمال البدنية و إن فرض فيها حسن النية .

ثم فصل سبحانه ذلك الفوز العظيم و بينه بقوله :

(يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم . خالدين فيها أبدا) أى يبشرهم ربهم فى كتابه على لسان رسوله ، وعلى لسان ملائكته حين الموت ، برحمة منه ورضوان كامل من لدنه لا يشوبه سخط ، وجنات تجرى من تحتها الأنهار ، ولهم فيها نعيم مقيم لا يزول على عُظْمه وكماله ، حال كونهم خالدين فيها أبدا .

(إن الله عنده أجر عظيم) أى إن ما عند الله من الأجر على الإيمان وصالح العمل الذى من أشقه الهجرة والجهاد عظيم لا يقدر قدره إلا الله الذى تفضل به ومنحه لعباده المكرمين ، ولاسيما على الإيمان الكامل الباعث على هجر الوطن ومفارقة الأهل

والسكن ، وعلى إنفاق المال الذى هو أحب شىء إلى النفس ، وعلى بذل النفس التى هى أعز شىء على الإنسان .

فما أجدرهم أن يبشرهم بأنواع من الأجر والجزاء مابين روحى وجسمانى ، فالأول الرحمة والرضوان . والرضوان : هو نهاية الإحسان وهو أعلى النعيم وأكمل الجزاء كما يدل على ذلك قوله : « وَعَدَ اللهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللهِ أَكْبَرُ » .

وما رواه الشيخان والترمذى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله يقول لأهل الجنة : يا أهل الجنة ؟ فيقولون : لبيك ربنا وسعديك ، فيقول : هل رضيتم ؟ فيقولون : ومالنا لانرضى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ؟ فيقول : أنا أعطيكم أفضل من ذلك ، فيقولون ربنا وأى شىء أفضل من ذلك ؟ فيقول : أحل عليكم رضوانى فلا أسخط عليكم بعده أبدا » .

والثانى : هو النعيم المقيم فى جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها أبدا .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ ، وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِ ، فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِىَ اللهُ بِأَمْرِهِ ، وَاللهُ لاَ يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) .

شرح المفردات

استحب كذا وأحبه : بمعنى ، والظلم : وضع الشىء فى غير موضعه ، والعشيرة : ذوو القرابة الأدنون الذين من شأنهم التعاون والتناصر ، والاقتراف : الاكتساب ،

وكساد التجارة : ضد رواجها ، والتربص : الانتظار ، وأمره : عقوبته إن عاجلا أو آجلا .

المعنى الجملى

لما أعلن الله براءته وبراءة رسوله من المشركين وآذنهم بنبذ عهودهم بعد أن ثبت أنه لاعهد لهم - عز ذلك على بعض المسلمين ، وتبرم به ضعفاء الإيمان وكان أكثرهم من الطلقاء الذين أعتقهم النبى صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة ، وكان موضع الضعف نصرة القرابة وعصبية النسب ، إذ كان لايزال لكثير منهم أولو قرابة من المشركين يكرهون قتالهم ويتمنون إيمانهم ، بل كان لبعض ضعفاء الإيمان وليجة وبطانة منهم .

من أجل هذا بين الله فى هاتين الآيتين أن فضل الإيمان والهجرة والجهاد ونيل مابشرالله به أهله من رحمته ورضوانه ودخول جناته - لايكمل إلا بترك ولاية الكافرين وإيثار حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله على حب الوالد والولد والأخ والزوج والعشيرة والمال والسكن .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان) أى لاتتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء تنصرونهم فى القتال وتظاهرون لأجلهم الكفار أو تطلعونهم على أسرار المؤمنين وما يستعدون به لقتال المشركين ، إن أصروا على الكفر وآثروه على الإيمان ، فإن فى ذلك قوة للمشركين على قتال المؤمنين وخضدا لشوكتهم؛ وقدحدث ذلك منذ ظهور الإسلام إلى نزول هذه السورة، فقد كتب حاطب بن أبى بلتعة وهو من أهل بدر وقد استخفته نعرة القرابة إلى مشركى مكة خفية يعلمهم بما عزم عليه النبى صلى الله عليه وسلم من قتالهم ، ليتخذ له بذلك

يدا عندهم يكافئونه عليها بحماية ما كان له عندهم من قرابة ، وفى ذلك نزلت سورة الممتحنة للنهى عن موالاة أعداء الله وأعدائهم .

(ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون) أى ومن يتولهم وهم على تلك الحال فأولئك المتولون لهم هم الظالمون لأنفسهم ولجماعتهم بوضعهم الموالاة فى غير موضعها ، فهم قد وضعوا الولاية فى موضع البراءة ، والمودة فى محل العداوة ، وقد حملهم على هذا الظلم نُعَرة القرابة وحمية الجاهلية .

ونحو الآية قوله فى سورة الممتحنة : « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ. إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ » .

وبعد أن بين ما وصل إليه حالهم من الإخلال بالإيمان انتقل إلى بيان سبب ذلك فقال :

(قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحبَّ إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره) أى قل لهم : إن كنتم تفضلون حظوظ الدنيا وشهواتها من الآباء والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة والأموال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله الذى وُعدتم عليه أنواع السعادة الأبدية فى الآخرة ، فانتظروا حتى يأتى أمر الله : أى عقوبته التى تحل بكم عاجلا أو آجلا .

وقد ذكر سبحانه الأمور الداعية إلى مخالطة الكفار وحصرها فى أربعة :

(١) مخالطة الأقارب وذكر منهم الآباء والأبناء والإخوان والأزواج ثم ذكر الباقى بلفظ العشيرة .

(٢) الميل إلى إمساك الأموال المكتسبة .

(٣) الرغبة فى تحصيل الأموال وتثميرها بالتجارة .

(٤) الرغبة فى الأوطان والدور التى بنيت للسكنى .

وخلاصة ذلك — إن كانت رعاية هـذه المصالح الدنيوية أولى عندكم من طاعة الله وطاعة رسوله ومن المجاهدة فى سبيله ، فتربصوا بما تحبون حتى يأتى الله بعقوبة من عنده عاجلة أو آجلة .

ولا يخفى ما فى ذلك من الوعيد والتهديد ، ومن الإيماء إلى أنه إذا وقع التعارض بين مصالح الدين ومصالح الدنيا وجب على المسلم نبذ الثانية وإلقاؤها وراءه ظهريا .

وبتفصيل ما تقدم فى الآية نجد أنها حوت أمورا ثمانية من أفضل ما يحب .

(ا) حب الأبناء للآباء وهو غريزى فى النفوس فالولد بضعة من أبيه يرث بعض صفاته وطبائعه من جسمية وخلقية ، وقد كان العرب يتفاخرون بآبائهم فى أسواقهم وفى معاهد الحج كما قال تعالى حاثا على ذكره : « فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا » .

(ب) حب الآباء للأبناء وهو غريزى أيضا ، وحب الوالد للولد أقوى وأبقى من عكسه ، فهو يحرص على بقائه كما يحرص على نفسه أو أشد ، ويحرم نفسه كثيرا من الطيبات إيثارا له بها فى حاضر أمره ومستقبله ، ويكابد الأهوال ويركب الصعاب ، ويقوم بتربيته وتعليمه ، إذ هو مناط الآمال وزينة الحياة كما قال تعالى : « الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا » .

(حـ) حب الإخوة وهو يلى فى المرتبة حب البنوة والأبوة ، وهو حب يقتضيه التناصر والتعاون فى الكفاح فى الحياة ، والبيوت التى سلمت فطرة أهلها وكرمت أخلاقهم يحبون إخوتهم كأنفسهم وأولادهم ، ويوقرون كبيرهم ، ويرحمون صغيرهم ، ويكفلون من يتركه أبوه صغيرا فيتربى مع أولادهم كأحدهم .

(ء) حب الزوجة ؛ وبالزوجية يتحد بشران يتم وجود كل منهما وجود الآخر

وينتجان بشرا مثلهما ، ومن ثم امتن الله علينا به فقال : «وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » .

(ه) حب العشيرة ، وهو حب عصبية وتعاون وولاية ونصر فى مواطن القتال والنزال والذود عن الحمى والحريم ، وهو يكون على أشده فى أهل البداوة ومن على مقربة منهم من أهل الحضر .

(و) حب الأموال المقترفة : أى المكتسبة ، وهو أقوى من حب الأموال الموروثة ، لأن عناء النفس فى جمعها يجعل لها فى قلبه منزلة لا تكون لما يجىء من المال عفوا .

(ز) حب التجارة التى يخشى كسادها فى حال الحرب ، وقد كان لبعض المسلمين من أهل مكة تجارة يخشون كسادها فى ذلك الحين ، لأن أكثر مستهلكيها كانوا من المشركين ، وكانت أسواقها تنصب فى موسم الحج ، وقد منع منه المشركون بنص الآيات السابقة واللاحقة .

(ح) حب المساكن الطيبة المرضية ، وقد كان لبعض المسلمين دور حسنة فى مكة كانوا يتمتعون فيها بالإقامة والسكنى لما فيها من المرافق وأسباب الراحة .

فهذه الثمانية الأنواع من الحب تجعل القتال مكروها مبغوضا لدى النفوس فوق ماله من بغض بمقتضى ذاته كما قال تعالى: « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وهُوَ كُرْهٌ لَكُمْ، وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئاً وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ ».

أما حبه تعالى فيجب أن يكون فوق هذه الأنواع لفضله وإحسانه بالإيجاد والإعدام وتسخير منافع الدنيا للناس ، وهو يتفاوت بتفاوت معارف الإنسان فى آلاء الله فى خلقه وإدراك ما فيها من الإبداع والإتقان : « قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ اللهُ » .

وكذلك حب رسوله يجب أن يكون فوق هذه أيضا ، فإنه صلى الله عليه وسلم كان المثل الأعلى فى أخلاقه وآدابه ، وقد أرسله الله هداية للعالمين إلى يوم الدين .

(والله لايهدى القوم الفاسقين) أى الخارجين من حدود الدين والشريعة ومن سلامة الفطرة إلى فساد الطباع ، ومن نور العقل إلى ظلمة الجهل والتقليد .

وقد جرت سنته تعالى أن يكون الفاسقون محرومين من الهداية الفطرية التى يهتدى إلى معرفتها الإنسان بالعقل السليم والوجدان الصحيح ، ومن ثم فهم يؤثرون حب القرابة والمنفعة الطارئة كالمال والتجارة على حب الله ورسوله والجهاد فى سبيله .

هذا وقد جاءت أحاديث كثيرة فى فضل حب الله ورسوله ، منها ما رواه الشيخان من حديث أنس مرفوعا « ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لايحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار » وعنه أيضا « لايؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين » وما رواه البخارى عن عبد الله بن هشام قال : « كنا مع النبى صلى الله عليه وسلم وهو آخذ بيد عمر بن الخطاب فقال له عمر : لأنت أحب إلىّ من كل شىء إلا نفسى التى بين جنبىّ ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم : لا والذى نفسى بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك التى بين جنبيك . فقال عمر : فإنه الآن والله لأنت أحب إلى من نفسى ، فقال له النبى صلى الله عليه وسلم : الآن يا عمر » .

والوسيلة إلى هذه المعرفة والحب كثرة الذكر والفكر وتدبر القرآن والتزام أحكام الشرع .

والذكر الحق هو ذكر القلب مع حسن النية وصحة القصد وتأمل سنن الله وآياته فى الخلق وأن تذكر حين رؤية كل شىء من صنع الله ، وسماع كل صوت من مخلوقات الله أنه يسبح بحمده تعالى ويدل على قدرته وحكمته ورحمته .

ومن أقام فرائض الله كما أمر، وترك معاصيه كما نهى، فإنه يصل بفضل الله إلى المقام الذى أشار إليه فى الحديث القدسى « وما تقرب إلى عبدى بشىء أحب إلى مما افترضته عليه، ولا يزال عبدى يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذى يسمع به، وبصره الذى يبصر به، ويده التى يبطش بها، ورجله التى يمشى بها » رواه البخارى .

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) .

شرح المفردات

المواطن: واحدها موطن، وهو مقر الإنسان ومحل إقامته كالوطن؛ والمراد بالمواطن هنا مشاهد الحرب ومواقعها، وحنين: واد على ثلاثة أميال من الطائف، وغزوته تسمى غزوة أوطاس وغزوة هوازن، والإغناء: إعطاء ما يدفع الحاجة، والرحب: السعة، ومدبرين: أى هاربين لا تلوون على شىء، والسكينة: الهيئة النفسية التى تحصل من سكون النفس واطمئنانها، وهى ضد الانزعاج، وقد تطلق على الرزانة والوقار .

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات لإقامة الحجة على صدق ما قبلها من النهى والوعيد وأن الخير والمصلحة للمؤمنين فى ترك ولاية أولى القربى من الكافرين، وفى إيثار حب

الله ورسوله والجهاد فى سبيله على حب أولى القربى والعشيرة والمال والسكن ونحوها مما يحب - إذ أبان فيها أن نصر الله المؤمنين فى المواطن الكثيرة لم يكن بقوة العصبية ولا بقوة المال ولا بما يشترى به من الزاد والعتاد ، بل كان بفضل الله عليهم بهذا الرسول الذى جاءهم بذلك الدين القويم ، وأن هزيمتهم وتوليهم يوم حنين كان ابتلاء لهم على عجبهم بكثرتهم ورضاهم عنها ، ونصرهم من بعد ذلك كان بعناية خاصة من لدنه ، ليتذكروا أن عنايته تعالى للمؤمنين بالقوة المعنوية لا بالكثرة العددية وما يتعلق بها .

الإيضاح

(لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة) أى ولقد نصركم الله أيها المؤمنون فى أماكن حرب توطنون فيها أنفسكم على لقاء عدوكم ، ومشاهد تلتقون فيها أنتم وهم فى صعيد واحد للطعان والنزال إحقاقا للحق و إظهارا لدينه .

روى أبو يعلى عن جابر أن عدد غزواته صلى الله عليه وسلم إحدى وعشرون ، قاتل بنفسه فى ثمان : بدر وأحد والأحزاب والمصطلق وخيبر ومكة وحنين والطائف .

و بعوثه وسراياه ست وثلاثون ، واختار جمع من العلماء أن المغازى والسرايا كلها ثمانون ولم يقع فى بعضها قتال ، ونصرهم فى كل قتال ، إما نصرا كاملا وهو الأكثر و إما نصرا مشوبا بشىء من التربية على ذنوب اقترفوها كما فى أحد ، إذ نصرهم أولا ثم أظهر عليهم العدو لمخالفتهم أمر القائد الأعظم فى أهم أوامر الحرب وهو حماية الرماة لظهورهم ، وكما فى حنين من الهزيمة فى أثناء المعركة والنصر التام فى آخرها .

(ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين) أى ونصركم أيضا فى يوم حنين وهو اليوم الذى أعجبتكم فيه كثرتكم إذ كنتم اثنى عشر ألفا وكان الكافرون أربعة آلاف فقط ، فقال قائل منكم : لن نغلب اليوم من قلة ، فشق ذلك على النبى صلى الله عليه وسلم فكانت الهزيمة : أى فكانت الهزيمة عقوبة على هذا الغرور والعجب وتربية للمؤمنين

حتى لا يغتروا بالكثرة مرة أخرى ، فإنها ليست إلا أحد الأسباب المادية الكثيرة المؤدية للنصر .

ومعنى قوله: فلم تغن عنكم شيئا الخ ـ أن تلك الكثرة التى غرتكم لم تكن بكافية لانتصاركم ولم تدفع عنكم شيئا من عار الغلب والهزيمة ، وضاقت عليكم الأرض على رحبتها وسعتها ، فلم تجدوا وسيلة للنجاة إلا الهرب والفرار من العدو ، فوليتموه ظهوركم منهزمين لا تلوون على شىء .

(ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين) أى ثم أفرغ الله سكينة من لدنه على رسوله بعد أن عرض له الأسف والحزن على أصحابه حين وقوع الهزيمة لهم ، مع أنه على هذا لم يزدد إلا ثباتا وشجاعة وإقداما ـ وعلى المؤمنين الذين ثبتوا معه وأحاطوا ببغلته الشهباء ـ وعلى سائر المؤمنين الصادقين فأذهب رَوْعهم وأزال حيرتهم وأعاد إليهم ما كان قد زلزل من ثباتهم وشجاعتهم ، وخصوصا حين سمعوا نداءه ونداء عمه العباس إذ دعاهم بأمره ـ وأنزل مع هذه السكينة جنودا من الملائكة لم تروها بأبصاركم ، بل وجدتم أثرها فى قلوبكم بما عاد إليها من رباطة الجأش وشدة البأس ـ وعذب الذين كفروا بالقتل والسبى والأسر ، وذلك هو جزاء الكافرين فى الدنيا ما داموا يستحبون الكفر على الإيمان ويعادون أهله ويقاتلونهم عليه .

ونحو الآية قوله: «قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ» .

(ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) أى ثم يتوب الله بعد هذا التعذيب الذى يكون فى الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهديهم إلى الإسلام إذا لم تحط بهم خطيئات الشرك وخرافاته ، ولم يختم على قلوبهم بالإصرار على الجحود والتكذيب ، وهو غفور لهم يتجاوز عما سلف منهم من الكفر والمعاصى ، رحيم بهم يتفضل عليهم ويثيبهم بالأجر والجزاء .

وفد هوازن وإسلامهم وغنائمهم

روى البخارى عن المِسْوَر بن مَخْرَمة ، أن ناسا منهم جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وبايعوه على الإسلام وقالوا : يا رسول الله أنت خير الناس وأبرّ الناس وقد سبي أهلونا وأولادنا وأخذت أموالنا ، (وقد سبى يومئذ ستة آلاف وأخذ من الإبل والغنم مالايحصى) فقال عليه السلام : إن عندى من ترون ، إن خير القول أصدقه ، اختاروا إما ذراريكم ونساءكم وإما أموالكم ، قالوا ما كنا نعدل بالأحساب شيئا ، فقام النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هؤلاء جاءونا مسلمين ، وإنا خيرناهم بين الذرارى والأموال ، فلم يعدلوا بالأحساب شيئا ، فمن كان بيده شيء وطابت به نفسه أن يرده فشأنه ، ومن لا فليعطنا وليكن قرضا علينا حتى نصيب شيئا فنعطيه مكانه ، قالوا رضينا وسلمنا ، فقال صلى الله عليه وسلم : إنا لاندرى لعل فيكم من لا يرضى ، فمروا عرفاءكم فليرفعوا ذلك إلينا ، فرفعت إليه العرفاء أنهم قد رضوا .

يَأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا ، وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) .

شرح المفردات

النجس : من نجس الشيء إذا كان قذرا غير نظيف والاسم النجاسة ، وقال الراغب : النجاسة : القذارة ، وهى ضربان : ضرب يدرك بالحاسة ، وضرب يدرك بالبصيرة ، وهذا ما وصف الله به المشركين فقال إنما المشركون نجس ، ويقال نجّسه ، إذا جعله نجسا ، ونجّسه : أزال نجسه ومنه تنجيس العرب ، وهو شيء كانوا يفعلونه من تعليق عوذة على الصبى ليدفعوا عنه نجاسة الشيطان ، والناجس والنجيس : داء خبيث لا دواء له اه .

والعيلة : الفقر ، يقال عال الرجل يعيل عيلا وعيلة إذا افتقر فهو عائل ، وأعال : كثر عياله ، وهو يعول عيالا كثيرين : أى يمونهم ويكفيهم أمر معاشهم ، والفضل: العطاء والتفضل .

المعنى الجملى

لما أمر النبى صلى الله عليه وسلم أبا بكر حين أمّره على الحج سنة تسع من الهجرة أن يبلغ الناس أنه لايحج بعد هذا العام مشرك ، ثم أمر عليًّا أن يتبع أبا بكر فيقرأ على الناس أول سورة براءة يوم الحج الأكبر وينبذ إليهم عهدهم ، وأن الله برىء من المشركين ورسوله - قال ناس يا أهل مكة ستعلمون ما تلقون من الشدة لانقطاع السبل وفقد الحمولات ، فنزلت هذه الآية لدفع تلك الشبهة فقال سبحانه « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله » .

قال ابن عباس : كان المشركون يجيئون إلى البيت ويجيئون معهم بالطعام يتجرون فيه ، فلما نهوا أن يأتوا البيت قال المسلمون : فمن أين لنا الطعام ؟ فأنزل الله « وإن خفتم عيلة » الآية قال فأنزل الله عليهم المطر وكثر خيرهم حين ذهب المشركون عنهم ، وأسلم أهل اليمن وجاءهم الناس من كل فج .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) أى إن المشركين أنجاس فاسدو الاعتقاد يشركون بالله ما لا يضر ولا ينفع ، فيعبدون الرجس من الأوثان والأصنام ، ويدينون بالخرافات والأوهام ، ويأكلون الميتة والدم ، وهى أقذار حسية ، ويستحلون القمار والزنا ويستبيحون الأشهر الحرم وهى أرجاس معنوية - من أجل هذا لا تمكنوهم بعد هذا العام أن يدخلوا المسجد الحرام بدخول أرض الحرم ، فضلا عن دخول البيت نفسه وطوافهم فيه عراة يشركون بربهم فى التلبية ، وإذا صلوا لم تكن صلاتهم إلا مكاء وتصدية .

وبلاد الإسلام فى حق الكفار أقسام ثلاثة :

(١) الحرم ، ولا يجوز لكافر أن يدخله بحال لظاهر الآية ، وبذلك قال الشافعى وأحمد ومالك ، فلو جاء رسول من دار الكفر والإمام فى الحرم لا يأذن له فى دخوله بل يخرج إليه بنفسه أو يبعث إليه من يسمع رسالته فى خارج الحرم ، وأبو حنيفة - يجيز للمعاهد دخول الحرم بإذن الخليفة أو نائبه .

(٢) الحجاز وهو ما بين عدن إلى ريف العراق فى الطول ، ومن جُدة وما والاها من ساحل البحر إلى أطراف الشام عرضا ، ويجوز للكفار دخولها بالإذن ، ولكن لا يقيمون فيها أكثر من ثلاثة أيام .

روى مسلم عن ابن عمر أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « لأخرجنّ اليهود والنصارى من جزيرة العرب فلا أترك فيها إلا مسلما » وفى رواية لمسلم وأوصى فقال : « أخرجوا المشركين من جزيرة العرب » فلم يتفرغ لذلك أبو بكر وأجلاهم عمر فى خلافته ، وأخرج مالك فى الموطأ « لا يجتمع دينان فى جزيرة العرب » .

وعن جابر قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إن الشيطان قد يئس أن يعبده المصلون فى جزيرة العرب ، ولكن فى التحريش بينهم » .

(٣) سائر بلاد الإسلام ، ويجوز للكافر أن يقيم فيها بعهد وأمان ، ولكن لا يدخل المساجد إلا بإذن مسلم .

(وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء) أى وإن خفتم فقرا بسبب قلة جلب الأقوات ، وضروب التجارات التى كان يجلبها المشركون من أرباب المزارع فى الشعاب والوديان من البلاد ذات البساتين والمزارع كالطائف وأرباب المتاجر - فسوف يغنيكم الله من فضله ، وفضله كثير ، فقد صاروا بعد الإسلام ومنع المشركين من الحرم أغنى مما كانوا قبل ذلك ، فقد تعددت وسائل الغنى فيما بعد ، وصدق الله وعده فأسلم أهل اليمن وصاروا يجلبون لهم الطعام ، وأسلم أولئك المشركون ولم يبق أحد منهم يمنع من الحرم ، ثم جاءتهم الثروة من كل جانب بما فتح الله

عليهم من البلاد فكثرت الغنائم وتوجه إليهم الناس من كل فج ، ومهد الله لهم سبل الرزق من إمارة وتجارة وزراعة وصناعة ، وكان نصيب مكة من ذلك عظيما بكثرة الحاج وأمن طرق التجارة .

وقيد هذا الغنى بمشيئة الله التى لايشك مؤمن فى حصول ما تتعلق به ، لتقوية إيمانهم بربهم واتكالهم عليه دون كسبهم وحده وإن كانوا مأمورين به لأنه من سننه فى خلقه ، ولكن لا يجوز أن ينسوا توفيقه وتأييده لهم فهو الذى نصرهم وأغناهم وسيزيدهم نصرا وغنى .

(إن الله عليم حكيم) أى إنه عليم بما يكون من مستقبل أمركم فى الغنى والفقر ، حكيم فيما يشرعه لكم من أمر ونهى كأمركم بقتال المشركين بعد انقضاء عهودهم ، ونهيكم عن قرب المشركين للمسجد الحرام بعد هذا العام ، ونهيكم عن اتخاذ آبائكم وإخوانكم منهم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان .

قَاتِلُوا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَلاَ بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلاَ يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللهُ وَرَسُولُهُ وَلاَ يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) .

شرح المفردات

يقال: فلان يدين بكذا إذا اتخذه دينا وعقيدة ، ودين الحق: هو الدين الذى أنزله الله على أنبيائه ، والجزية ضرب من الخراج يضرب على الأشخاص لا على الأرض ، وجمعها جزى (بالكسر) واليد: السعة والقدرة ، والصغار والصغر: ضد الكبر ويكون فى الأمور الحسية والمعنوية ، والمراد به هذا الخضوع لأحكام الإسلام وسيادته التى بها تصغر أنفسهم لديهم بفقد الملك وعجزهم عن مقاومة الحكم .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أحكام المشركين فى إظهار البراءة من عهودهم ، وفى إظهار البراءة منهم فى أنفسهم ، وفى وجوب مقاتلتهم وإبعادهم عن المسجد الحرام — قفّى على ذلك بحكم قتال أهل الكتاب وبيان الغاية منه ، وفى ذلك توطئة للكلام فى غزوة تبوك مع الروم من أهل الكتاب والخروج إليها فى زمن العسرة والقيظ ، وما يتعلق بها من فضيحة المنافقين وهتك حجب كفرهم وتمحيص المؤمنين ، وإن كان النبى صلى الله عليه وسلم لم يقاتل فيها الروم لما سيأتى بعد .

روى ابن المنذر عن ابن شهاب قال : أنزلت فى كفار قريش والعرب (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله) وأنزلت فى أهل الكتاب (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر — إلى قوله — حتى يعطوا الجزية) فكان أول من أعطى الجزية أهل نجران قبل وفاته عليه الصلاة والسلام .

روى ابن أبى شيبة وأبو الشيخ عن الحسن قال : قاتل رسول الله صلى الله عليه وسلم أهل هذه الجزيرة من العرب على الإسلام لم يقبل منهم غيره ، وكان أفضل الجهاد ، وكان بعده جهاد على هذه الآية فى شأن أهل الكتاب (قاتلوا الذين لايؤمنون بالله) الآية ، وعلى الجملة فالقتال الواجب فى الإسلام إنما شرع للدفاع عن الحق وأهله وحماية الدعوة ونشرها ، ومن ثم اشترط أن تقدم عليه الدعوة إلى الإسلام .

والناظر إلى غزواته صلى الله عليه وسلم يرى أنها كلها كانت دفاعا عن الدعوة ، وكذلك كانت حروب الصحابة فى الصدر الأول ، ثم كان القتال بعد ذلك ضرورة من ضرورات الملك والدولة ، ومع ذلك فقد كان الإسلام فيها مثال الرأفة والرحمة والعدل .

الإيضاح

(قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب) أى قاتلوا أهل الكتاب ، إذ هم جمعوا أربع صفات هى العلة فى عداوتهم للإسلام ، ووجوب خضوعهم لحكمه ما داموا فى داره ، إذ لو أجيز لهم حمل السلاح لأفضى ذلك إلى قتال المسلمين فى دارهم ومساعدة من يهاجمهم فيها كما فعل يهود المدينة وما حولها بعد تأمين النبى صلى الله عليه وسلم لهم ، وجعلهم حلفاء له ، وأجاز لهم الحكم فيما بينهم بشرعهم ، وسمح لهم بالعبادة على النحو الذى يريدون ، وكذلك فعل مع نصارى الروم فى حدود البلاد العربية .

وهذه الأمور الأربعة التى أسند إليهم تركها هى أصول كل دين إلهى ، ومن ثم أمر بقتال الذين لا يقيمونها وهى :

(١) إنهم لا يؤمنون بالله ، وقد شهد القرآن بأن اليهود والنصارى فقدوه بهدم أساسه وهو التوحيد ، إذ هم قد اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، يشرعون لهم العبادات ويحرمون ويحللون فيتبعونهم ، وبذا أشركوهم فى الربوبية ، ومنهم من أشرك به فى الألوهية كالذين قالوا عزير ابن الله ، والذين قالوا : المسيح ابن الله ، أو هو الله .

(٢) إنهم لا يؤمنون باليوم الآخر ، إذ هم يقولون إن حياة الآخرة حياة روحانية محضة يكون فيها الناس كالملائكة ، لكنا نؤمن بأن الإنسان لا تنقلب حقيقته ، بل يبقى مؤلفا من جسد وروح ، ويتمتع بنعيم الأرواح والأجساد .

ولا يوجد فيما بين أيدى اليهود والنصارى من التوراة نصوص صريحة فى البعث والجزاء بعد الموت ، بل فيها إشارات غير صريحة فى ذلك .

(٣) إنهم لا يحرمون ما حرم الله ورسوله ، فاليهود لا يحرمون ما حرم فى شرعهم

الذى جاء به موسى ونسخ بعضه عيسى ، ولا يلتزمون العمل بما حرم ، فقد استحلوا أكل أموال الناس بالباطل كالربا وغيره ، واتبعوا عادات المشركين فى القتال والنفى ومفاداة الأسرى ، والنصارى استباحوا ما حرم عليهم فى التوراة مما لم ينسخه الإنجيل ، فأباحوا جميع محرمات الطعام والشراب إلا ما ذبح للأصنام ، فقد ثبت فى كتبهم أن الله حرم عليهم الشحوم فأذابوها وباعوها وأكلوا أثمانها ، وحرم عليهم أشياء كثيرة فأحلوها .

(٣) إنهم لايدينون دين الحق ، إذ أن ما يتقلدونه إنما هو دين تقليدى وضعه لهم أساقفتهم وأحبارهم بآرائهم الاجتهادية وأهوائهم المذهبية ، لا دين الحق الذى أوحاه الله إلى عيسى وموسى عليهما السلام .

فاليهود لم يحفظوا ما استحفظوا من التوراة التى كتبها موسى وكان يحكم بها هو والنبيون من بعده ، إلى أن عاقبهم الله بتسليط البابليين عليهم فجاسوا خلال الديار وأحرقوا الهيكل وما فيه من الأسفار وسبوا بقية السيف منهم وأجلوهم عن وطنهم إلى أرض من استعبدهم فدانوا لشريعة غير شريعتهم .

ولما أعادوهم إلى أوطانهم وكانوا قد فقدوا نصوص التوراة وحفظوا بعضها دون بعض — كتبوا ما حفظوا من شريعة الرب ممزوجا بما دانوا به من شريعة ملك بابل كما أمرهم كاهنهم عزرا (عزير) ثم هم بعد ذلك حرفوا وبدلوا ولم يقيموها كما أمروا ، والنصارى لم يحفظوا كل ما بلّغهم عيسى عليه السلام من العقائد والوصايا والأحكام القليلة الناسخة لبعض أحكام التوراة الشديدة ، وذلك هو دين الله الحق .

وكتب كثير منهم تواريخ أودعوا فيها ما عرفوه من ذلك ومن غيره ، وجاءت المجامع الرسمية بعد ثلاثة قرون فاعتمدت أربعة أناجيل من نحو نيف وسبعين إنجيلا رفضتها وجعلتها غير قانونية .

وإلى ما تقدم فى أهل الملتين الإشارة بقوله « فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ

وَلاَ تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَى خَائِنَةٍ مِنْهُمْ إِلاَّ قَلِيلاً مِنْهُمْ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاصْفَحْ، إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ . وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ » .

ومن هذا النص يعلم أن كلا من اليهود والنصارى نسى حظا مما ذكرهم به نبيهم ، ولم يعملوا بالبعض الآخر ، فأكثر عباداتهم من وضع أحبارهم .

ولقب ــ أهل الكتاب ــ والذين أوتوا الكتاب ــ وإن كان عاما ــ خص به اليهود والنصارى ، لأنهم هم الذين كانوا مخالطين ومجاورين للأمة العربية ومعروفين لديها كما قال تعالى مخاطبا مشركى العرب « أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أُنْزِلَ الْكِتَابُ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَافِلِينَ » .

(حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون) أى قاتلوا من ذكروا حين وجود ما يقتضى القتال كالاعتداء عليكم أو على بلادكم أو اضطهادكم وفتنتكم عن دينكم أو تهديد أمنكم وسلامتكم كما فعل بكم الروم وكان ذلك سببا لغزوة تبوك ــ إلى أن تأمنوا عدوانهم بإعطائكم الجزية بشرط أن تكون صادرة عن يد أى قدرة واسعة فلا يظلموا ولا يرهقوا ، وأن يخضعوا لسيادتكم وحكمكم ، وبذا يسهل السبيل لاهتدائهم إلى الإسلام بما يشاهدون من عدلكم وفضائلكم التى يرونها رأى العين .

فإن أسلموا عم الهدى والعدل ، وإن لم يسلموا وأعطوا الجزية وجب تأمينهم وحمايتهم والدفاع عنهم وإعطاؤهم حريتهم فى دينهم ومعاملتهم بالعدل والمساواة كالمسلمين « لهم ما لنا وعليهم ما علينا » .

ويحرم ظلمهم وإرهاقهم بتكليفهم ما لا يطيقون ، ويسمّون حينئذ أهل الذمة ، إذ كل هذه الحقوق تكون لهم بمقتضى ذمة الله وذمة رسوله .

أما الذين يعقد بيننا وبينهم صلح بعهد وميثاق يعترف به الطرفان فيسمون المعاهدين أو أهل العهد .

وأول من سن الجزية كسرى أنوشروان ، قال أبو حنيفة الدِّينَوَرى : إنه وظَّف الجزية على أربع طبقات ، وأسقطها عن أهل البيوتات والمرازبة والأساورة والكتاب ومن كان فى خدمة الملك ، ولم يلزم أحدا لم تأت له عشرون سنة أو جاوز الخمسين .

وقد اقتدى به عمر بن الخطاب حين افتتح بلاد الفرس ولم يكن هو بأول واضع لهـا .

وهاك عهدا كتبه أحد قواد عمر بن الخطاب لرزبان وأهل دهستان :

«هذا كتاب من سويد بن مقرّن لرزبان صول بن رزبان وأهل دهستان وسائر أهل جرجان ، إن لكم الذمة وعلينا المنعة .على أن عليكم من الجزاء فى كل سنة على قدر طاقتكم على كل حالم ، ومن استعنا به منكم فله جزاؤه فى معونته عوضا عن جزائه ، ولكم الأمان على أنفسكم وأموالكم ومللكم وشرائعكم ولا يغير شىء من ذلك . شهد بذلك سواد بن قطبة وهند بن عمر وسماك بن مخرمة وعتيبة بن النهاس » .

وكتب عتبة بن فرقد أحد عمال عمر بن الخطاب قال :« هذا ما أعطى عتبة ابن فرقد عامل عمر بن الخطاب أمير المؤمنين أهل أذربيجان سهلها وجبلها وحواشيها وشفارها وأهل مللها كلهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وملاهم وشرائعهم على أن يؤدوا الجزية على قدر طاقتهم ، ومن حشر منهم فى سنة (أرسل لميدان القتال) وضع عنه جزاء تلك السنة ، ومن أقام فله مثل ما لمن أقام من ذلك » .

والجزية التى وضعها عمر على الفقراء من أهل الذمة اثنا عشر درهما ، وعلى الأوساط أربعة وعشرون ، وعلى أهل الثروة ثمانية وأربعون .

وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللهِ ، وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللهِ ، ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ،قَاتَلَهُمُ اللهُ ،

أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) .

شرح المفردات

عزير: هو الذى يسميه أهل الكتاب عزرا، وينتهى نسبه إلى العازار بن هرون عليه السلام ، ويضاهئون : أى يشابهون ويحاكون ، وقاتلهم الله : جملة أصلها الدعاء ثم كثر استعمالها حتى قيلت على وجه التعجب فى الخير والشر وهم لا يريدون الدعاء، والإفك: صرف الشىء عن وجهه، يقال أُفِك فلان أى صرف عقله عن إدراك الحقائق ، ورجل مأفوك العقل ، والأحبار واحدهم حبر (بالفتح والكسر) وهو العالم من أهل الكتاب ، والرهبان: واحدهم راهب، وهو لغة الخائف ، وعند النصارى هو المتبتل المنقطع للعبادة ، والإرادة : القصد إلى الشىء ، وقد تطلق على مايفضى إليه وإن لم يرده فاعله فيقال فى الرجل المسرف المبذر : يريد أن يخرب بيته أى إن تبذيره يفضى إلى ذلك فكأنه يقصده ، لأن فعله فعل من يقصد ذلك ، ونور الله : هو دين الإسلام ، وأظهره على الشىء : جعله فوقه مستعليا عليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فى الآيات السالفة أنهم لايؤمنون بالله ولا باليوم الآخر على الوجه الصحيح ــ قفّى على ذلك بشرح ذلك المجمل فى هذه الآيات ، فنقل عنهم

أنهم أثبتوا لله ابنا ، وهذا بمنزلة الشرك بالله فإن طرق الشرك مختلفة ، وأنهم اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا يحرمون ويحللون ، وأنهم يسعون فى إبطال الإسلام و إخفاء الدلائل الدالة على صدق رسوله وصحة دينه .

الإيضاح

(وقالت اليهود عزير ابن الله) عزير كاهن يهودى وكاتب شهير سكن بابل حوالى سنة ٤٥٧ ق م أسس المجمع الكبير وجمع أسفار الكتاب المقدس وأدخل الأحرف الكلدانية عوضا من العبرانية القديمة ، وألف أسفار الأيام ، وعزرا ، ونحميا؛ وعلى الجملة فعصره هو ربيع الدين اليهودى ، وهو جدير أن يكون ناشر الشريعة اليهودية ، فقد أحياها بعد أن نسيت ، ومن أجل هذا فاليهود يقدسونه حتى إن بعض يهود المدينة أطلق عليه لقب (ابن الله) .

و إسناد هذا القول إليهم جملة و إن كان قد صدر من بعضهم — مبنى على أن الأمة تعد متكافلة فى شئونها العامة ، فما يفعله بعض الفرق أو الجماعات يكون له تأثير فى جملتها ، والمنكر الذى يفعله بعضهم إذا لم ينكره عليه جمهورهم و يزيلوه يؤاخذون به كلهم كما قال تعالى « وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَاتُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً » .

وما مثل ذلك إلا مثل الأوبئة التى تحدث فى الشعب بكثرة الأقذار و إهمال مراعاة القواعد الصحية — لايعدى بها من تلبس بها فحسب ، بل تنتشر العدوى فى الشعب جميعه .

روى ابن إسحق وابن جرير وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : أتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم سلام بن مشكم ونعمان بن أوفى وأبو أنس وشاس ابن قيس ومالك بن الصيف فقالوا : كيف نتبعك وقد تركت قبلتنا وأنت لا تزعم أن عزيرا ابن الله ؟

والمشهور عند المؤرخين حتى مؤرخى أهل الكتاب أن التوراة التى كتبها

موسى عليه السلام ووضعها فى تابوت العهد أو بجانبه قد فقدت قبل عهد سليمان عليه السلام ، فإنه لما فتح التابوت فى عهده لم يوجد فيه غير اللوحين اللذين كتبت فيهما الوصايا العشر كما جاء فى سفر الملوك الأول ، وأن عزرا هو الذى كتب التوراة وغيرها بعد السبى بالحروف الكلدانية ممزوجة ببقايا اللغة العبرانية التى نسى اليهود معظمها ، ويقول أهل الكتاب إن عزرا كتبها كما كانت بوحى أو بإلهام من الله .

وخلاصة ما سلف — إن جميع أهل الكتاب يدينون لعزير فى مستند دينهم وأصل كتبهم المقدسة عندهم ، وإن كان هذا المستند ضعيفا ، فقد جاء فى ترجمة عزرا من دائرة المعارف البريطانية : إنه لم يُعِد إليهم الشريعة التى أحرقت فحسب ، بل أعاد جميع الأسفار العبرية التى كانت أتلفت وأعاد سبعين سفرا غير قانونية (أبو كريف) ثم قال كاتب الترجمة : وإذا كانت هذه الأسطورة الخاصة بعزرا هذا قد كتبها من كتبها من المؤرخين بأقلامهم من تلقاء أنفسهم ولم يستندوا فى شىء منها إلى كتاب آخر ، فكتّاب هذا العصر يرون أن أسطورة عزرا قد اختلقها أولئك الرواة اختلاقا اه .

(وقالت النصارى المسيح ابن الله) وهذا قول للقدماء منهم كان يراد به أنه المحبوب أو المكرم ، ثم سرت إليهم وثنية الهنود فاتفقت كلمتهم على أنه ابن الله حقيقة ، وعلى أن ابن الله بمعنى (الله) وبمعنى (روح القدس) إذ هذه الثلاثة عندهم واحد حقيقة ، وهذا تعليم الكنائس الذى قررته المجامع الرسمية بعد المسيح وتلاميذه بثلاثة قرون — وقد خالف فى ذلك خلق كثير منهم يسمون الموحدين أو العقليين ، ولكن الكنائس الكاثوليكية والأرثوذكسية والبروتستنتية لا تعتدّ بنصرانيتهم ولا بدينهم .

وكلمة (ثالوث) تطلق عندهم على وجود أقانيم ثلاثة معا فى اللاهوت تعرف بالآب والابن والروح القدس ، وهذا هو تعليم الكنيسة الكاثوليكية والشرقية والبروتستانتية وهو المطابق لنصوص الكتاب المقدس .

وعقيدة التثليث وألوهية المسيح مع مخالفتهما للعقل ليس لهما أصل فى كتب الأنبياء لا قطعى ولا ظنى ، وكتب العهد الجديد كذلك ليست نصا فيهما ؛ على أن هذه لا يوثق بها ، فإن النصارى قد أضاعوا أكثر ما كتب من إنجيل المسيح فى عصره ، ثم رفضت مجامعهم الرسمية بعد دخول التعاليم الوثنية فيهم من قبل الرومانيين أكثر ما وجد عندهم من الأناجيل التى كانت تعد بالعشرات واعتمدت أربعا منها فحسب ، وهذا مصداق قوله تعالى « وَنَسُوا حَظًّا مِمَّا ذُكِّرُوا بِهِ » .

(ذلك قولهم بأفواههم) أى هذا الذى قالوه فى عزير والمسيح قول تلوكه الألسنة فى الأفواه ، لا يؤيده برهان ولا يتجاوز حركة اللسان ، بل البرهان دالّ على عكسه لاستحالة إثبات الولد لمن هو برىء عن الحاجة واتخاذ الصاحبة .

وفى معنى الآية قوله : « وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ، كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ، إِنْ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا » .

(يضاهئون قول الذين كفروا من قبل) أى يشابهون فيها قول الذين كفروا من قبلهم وهم مشركو العرب الذين قالوا مثل هذا القول ، إذ قالوا : الملائكة بنات الله .

وقد علم من تاريخ قدماء الوثنيين فى الشرق والغرب أن عقيدة الابن لله والحلول والتثليث كانت معروفة عند البراهمة والبوذيين فى الهند والصين واليابان وقدماء الفرس والمصريين واليونان والرومانيين ، فبيان القرآن الكريم لهذه الحقيقة التى لم يكن أحد من العرب ولا ممن حولهم يعرفها ــ بل لم تظهر إلا فى هذا الزمان ــ معجزة من معجزاته الكثيرة التى تظهر على مر الزمان وتصدقها المشاهدة والعيان .

(قاتلهم الله) تعجب من شناعة قولهم ، وقد شاع استعمالها فى ذلك ، وتستعمل فى المدح أيضا فيقال : قاتله الله ما أفصحه ، وأخرج ابن جرير عن ابن عباس أن المراد لعنهم الله .

(أنى يؤفكون ؟) أى كيف يصرفون عن توحيد الله وتنزيهه ، وبه تجزم

العقول ، و بلّغه عن الله كل رسول - إلى قول لا يقبله عقل ، فما المسيح وعزير إلا مخلوقان من مخلوقات الله الذى خلق هذا الـكون العظيم ودبر أمره ، ولا ينبغى لواحد من هذه المخلوقات أن يجعل لخالقه ومدبر شئونه ولدا من جنسه ، مع علمه بأنه كان يأكل و يشرب و يتعب و يتألم «وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمٰنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ» .

ثم فصل قوله قبلُ يضاهئون قول الذين كفروا من قبل بقوله :

(اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله والمسيح بن مريم) أى اتخذ كل من اليهود والنصارى رؤساء الدين فيهم أربابا ، فاليهود اتخذوا أحبارهم وهم علماء الدين أربابا بما أعطوهم من حق التشريع فيهم و إطاعتهم فيه ، والنصارى اتخذوا قساوستهم ورهبانهم : أى عبادّهم الذين يخضع لهم العوام أربابا كذلك .

والرهبان عند النصارى أدنى طبقات رجال الدين ، فاتخاذهم أربابا يقتضى بالأولى أن يتخذوا من فوقهم من الأساقفة والمطارنة والبطاركة ، إذ الرهبان يخضعون لتشريع هؤلاء الرؤساء مدوّنا كان أو غير مدون ، والعوام يخضعون لتشريع الرهبان ولو غير مدون ، سواء قالوه تبعا لمن فوقهم أو من تلقاء أنفسهم لثقتهم بدينهم .

وانفرد النصارى باتخاذهم المسيح ربا و إلها يعبدونه ، ومنهم من يعبد أمه عبادة حقيقية و يصرحون بذلك ، وجميع الـكاثوليك والأرثوذكس يعبدون تلاميذه ورسله وغيرهم من القديسين فى عرفهم ، و يتوسلون بهم ، و يتخذون لهم الصور والتماثيل فى كنائسهم ، ولـكنهم لا يسمون هذا عبادة .

واليهود لم يقتصروا فى دينهم على أحكام التوراة ، بل أضافوا إليها من الشرائع ما سمعوه من رؤسائهم من قبل أن يدوّنوه فى المِشْنه والتَّلْمُود ، ثم دونوه فكان هو الشرع العام وعليه العمل عندهم .

والنصارى غيّر رؤساؤهم جميع أحكام التوراة الدينية والدنيوية واستبدلوا بها شرائع أخرى فى العبادات والمعاملات جميعا ، وزادوا حق مغفرة الذنوب لمن شاءوا

وحرمان من شاءوا من رحمة الله وملكوته ، والله يقول : « وَمَنْ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ ؟ » وزادوا القول بعصمة البابا فى تفسير الكتب الإلهية ، ووجوب طاعته فى كل ما يأمر به من الطاعات ، وينهى عنه من المحرمات .

روى الإمام أحمد والترمذى وابن جرير عن عدى بن حاتم رضى الله عنه أنه لما بلغته دعوة الرسول صلى الله عليه وسلم فر إلى الشام وكان قد تنصر فى الجاهلية ، فأسرت أخته وجماعة من قومه ثم منّ رسول الله عليها وأعطاها فرجعت إلى أخيها ورغبته فى الإسلام وفى القدوم على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقدم عدىّ المدينة وكان رئيسا فى قومه طىء (وأبوه حاتم الطائى المشهور بالكرم) فتحدث الناس بقدومه ، فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله) قال فقلت : إنهم لم يعبدوهم فقال : (بلى إنهم حرّموا عليهم الحلال ، وأحلوا لهم الحرام فاتبعوهم فذلك عبادتهم إياهم) .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ياعدى ماتقول ؟ أيضرك أن يقال الله أكبر؟ فهل تعلم شيئا أكبر من الله ؟ ما يضرك ؟ أيضرك أن يقال لا إله إلا الله ، فهل تعلم إلها غير الله ؟ ثم دعاه إلى الإسلام فأسلم وشهد شهادة الحق ، قال فلقد رأيت وجهه استبشر ، ثم قال : إن اليهود مغضوب عليهم والنصارى ضالون .

(وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) أى اتخذوا رؤساءهم أربابا من دون الله ، والربوبية تستلزم الألوهية ، إذ الرب هو الذى يجب أن يعبد وحده ، والحال أنهم ما أمروا على لسان موسى وعيسى ومن اتبعهما فيما جاءا به من عند الله ، إلا أن يعبدوا ويطيعوا فى الدين إلها واحدا بما شرعه لهم وهو ربهم ورب كل شىء ومليكه .

ثم علل الأمر بعبادة إله واحد فقال :

(لا إله إلا هو) أى لا إله غيره فى حكم الشرع وفى نظر العقل ، وإنما اتخذ المشركون آلهة من دونه بالرأى والهوى جهلا بصفات الألوهية ، إذ ظنوا أن لبعض

المخلوقات سلطانا غيبيا وقدرة على الضر والنفع من غير طريق الأسباب المسخرة للخلق مثل ماالله إما بالذات وإما بالوساطة والشفاعة لديه .

(سبحانه عما يشركون) أى تنزيها له عن شركهم فى ألوهيته بدعاء غيره معه أو من دونه ، وفى ربوبيته بطاعة الرؤساء فى التشريع الدينى بدون إذنه .

وأمره تعالى بعبادته وحده على لسان موسى عليه السلام جاء فى مواضع من التوراة ، منها أول الوصايا العشر التى جاءت فى سفر الخروج (أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية ، لايكن لك آلهة أخرى أمامى ، لاتصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورا مما فى السماء من فوق ولا مما فى الأرض من تحت ، ولا مما فى الماء تحت الأرض ، لاتسجد لهن ، ولا تعبدهن ، لأنى أنا الرب إلهك إله غيور) الخ .

وأمره تعالى بعبادته على لسان عيسى كثير أيضا ، من ذلك ما رواه يوحنا فى إنجيله (وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقى وحدك ويسوع المسيح الذى أرسلته) .

(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) أى يريد اليهود والنصارى أن يطفئوا نور الله وهو دين الإسلام الذى أرسل به جميع رسله ، وأفاضه على البشر بما أوحاه على موسى وعيسى وغيرهما من رسله ، وأتمه وأكمله ببعثة خاتم النبيين محمد صلى الله عليه وسلم ـ بالطعن فى الإسلام والصد عنه بالباطل بمثل تلك الأقوال فى عزير والمسيح ، وبما ابتدعه لهم الرؤساء من التشريع حتى صار التوحيد الذى أمروا به هو محض الشرك عندهم ، وصار المربوب ربا على تفاوت بين فرقهم فى ذلك .

وهكذا عادى أهل الكتاب الإسلام منذ البعثة المحمدية ، وقصدوا إبطاله والقضاء عليه بالحرب والقتال من ناحية ، وبالطعن وإفساد العقائد من ناحية أخرى، وكل من الأمرين أرادوه لإطفاء نوره .

(ويأبى الله إلا أن يتم نوره) ببعثة محمد خاتم النبيين الذى أرسله إلى الخلق أجمعين

وجعل آيته الكبرى وهى القرآن علمية عقلية وكفل حفظها إلى آخر الزمان ، و بين لهم فيه ما يحتاجون إليه من عقائد يؤيدها البرهان ، وتبطل بها عبادة الإنسان للإنسان ، فضلا عن الأصنام والأوثان ، وعبادات تتزكى بها النفس وتطهر من كل رجس ، وتجعل كفاية الأغنياء للفقراء حقوقا إلهية ويبطل ثوابها المن والأذى ، وآداب تطبع فى الأنفس الفضائل ، وتشريع يجمع بين الرحمة والعدل والمساواة بين جميع الناس فى الحق .

وخلاصة ما سلف — إنهم يريدون أن يطفئوا نور الله الذى شرعه لهداية عباده وركنه الركين ، وأساسه المتين توحيد الربوبية والألوهية ، فتحولوا عنه إلى الشرك والوثنية ، والله لا يريد إلا أن يتم هذا النور الذى هو كنور القمر فيجعله بدرا كاملا يعم نوره الأرض كلها .

(ولو كره الكافرون) ذلك بعد تمامه ، كما كانوا يكرهونه من قبل حين بدء ظهوره ، فهم يكيدون له و يفترون عليه و يطعنون فيه ، وفيمن جاء به و يحاولون إخفاءه.

أما اليهود فكانوا فى أول الإسلام أشد الناس عداوة لأهله ، فهم فى ذلك كمشركى العرب سواء .

ولما عجزوا عن إطفاء نوره بمساعدة المشركين على النبى صلى الله عليه وسلم قصدوا إطفاء نوره ببث البدع فيه وتفريق كلمة أهله كما فعل عبد الله بن سبأ من ابتداع التشيع لعلى كرم الله وجهه والغلوّ فى ذلك و إلقاء الشقاق بين المسلمين ، ثم فى الفتنة بين علىّ ومعاوية ، ولولا ذلك لما قتل أولئك الألوف من صناديد المسلمين ، ثم ما كان من منافقيهم من الإسرائيليات الكاذبة التى لا تزال مبثوثة فى تضاعيف كتب التفسير والحديث والتاريخ .

وأما النصارى فقد كان الحبشة منهم أول من أظهر المودة لهم ، وأكرم النجاشى من لجأ إليه من مهاجريهم ، ومنعهم من تعدى المشركين عليهم ، ثم انقلب الأمر بعد انتشار الإسلام وراء جزيرة العرب ، فتودد اليهود للمسلمين لأنهم أنقذوهم من

ظلم النصارى واستعبادهم ، وصار نصارى أوربة المستعمرون للممالك الشرقية هم الذين يقاتلون المسلمين ويعادونهم دون نصارى هذه البلاد ، لأنهم رأوا من عدل المسلمين مافضلوهم به على الروم الذين كانوا يظلمونهم ويحتقرونهم - إلى أن جاءت الحروب الصليبية فغلا نصارى أوربا فى عداوة المسلمين ، ولا يزال الأمر كذلك فى هذا العصر كما هو مشاهد معروف .

ثم بين إتمام نور الله فقال :

(هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق) أى إنه تعالى كفل إتمام هذا النور بإرسال رسوله الأكمل بالهدى والدين الحق الذى لا يغيره دين آخر ولا يبطله شىء آخر .

ثم ذكر الغاية من إرسال محمد خاتم النبيين بدين الحق فقال :

(ليظهره على الدين كله) أى ليعلى هذا الدين ويرفع شأنه على جميع الأديان بالحجة والبرهان ، والهداية والعرفان ، والسيادة والسلطان ، ولم يكن لدين من الأديان مثل ما للإسلام من التأثير الروحى والعقلى والمادى والاجتماعى والسياسى .

روى أحمد عن عدى بن حاتم رضى الله عنه قال : «دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا عدى أسلم تسلم ، قلت إنى من أهل دين ، قال أنا أعلم بدينك منك ، فقلت أنت أعلم بدينى منى ؟ قال نعم . ألست من الرَّكوسية (دين بين الصابئة والنصرانية) وأنت تأكل مرباع قومك (والمرباع ما كان يأخذه رئيس القوم من الغنائم وهو من عادات الجاهلية) قلت بلى (قال فإن هذا لايحل لك فى دينك) قال فلم يعدُ أن قالها فتواضعت لها ، قال : أما إنى أعلم ما الذى يمنعك من الإسلام . تقول إنما اتبعه ضعفة الناس ومن لاقوة له وقد رمتهم العرب ، أتعرف الحيرة ؟ قلت لم أرها ولكن سمعت بها . قال فوالذى نفسى بيده ليتمن الله هذا الدين حتى تخرج الظعينة من الحيرة حتى تطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولتُفتحن كنوز كسرى

ابن هرمز . قلت كسرى بن هرمز ؟ قال نعم كسرى بن هرمز ، وليبذلن المال حتى لايقبله أحد » .

قال عدى : فهذه الظعينة تخرج من الحيرة فتطوف بالبيت من غير جوار أحد ، ولقد كنت فيمن فتح كنوز كسرى بن هرمز ، والذى نفسى بيده لتكونن الثالثة ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم قالها .

(ولو كره المشركون) ذلك الإظهار ، وقد وصفهم بالشرك بعد أن وصفهم بالكفر للدلالة على أنهم جمعوا بين الكفر بالرسول وتكذيبه ، والشرك بالله .

وفى الجملتين إخبار بأن إتمام الله لدينه و إظهاره على جميع الأديان سيكون بالرغم من جميع الكفار المشركين منهم وغير المشركين .

يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ، وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ، هٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) .

شرح المفردات

أكل الأموال : يراد به أخذها والتصرف فيها بسائر وجوه الانتفاع ، والصد : المنع ، وسبيل الله : هى طريق معرفته الصحيحة وعبادته القويمة ، وأساس ذلك التوحيد والتنزيه ، والكنز هنا : خزن الدنانير والدراهم فى الصناديق ، أو دفنها فى التراب مع الامتناع عن الإنفاق فيما شرعه الله من البر والخير ، ويحمى عليها : أى تضرم عليها النار الحامية حتى تصير مثلها .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه فى الآيات السالفة أن اليهود والنصارى اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، وأنهم ما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا فعبدوا غيره من دونه ـ قفى على ذلك بذكر سيرة جمهرة هؤلاء الرؤساء الدينيين فى معاملاتهم مع الناس ليعرف المسلمون حقيقة أحوالهم والدواعى التى تحملهم على إطفاء نور الله ، ببيان أن أكثرهم عباد شهوات وأرباب أهواء وذوو أطماع وحرص على أخذ أموال الناس بالباطل ، وأنه ما حملهم على مقاومة الإسلام إلا خوف ضياع تلك اللذات ، وفوات تلك الشهوات .

ثم أوعد الباخلين الذين يكنزون الذهب والفضة فى صناديقهم ولا ينفقونها فى سبيل البر والخير ـ بالعذاب الأليم فى نار جهنم يوم يحمى على تلك الأموال المكنوزة فتصير كالنار التهابا ثم تكوى بها الجباه والجنوب والظهور ويقال لهم : هذا جزاء صنيعكم فى الدنيا منعتموه البائس الفقير لتتمتعوا به فكان جزاؤكم أن صار وبالا عليكم وميسما تكتوون به على جنوبكم وظهوركم فلم تنتفعوا به فى دين ولا دنيا .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا إن كثيرا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله) أى إن كثيرا من الأحبار والرهبان أشربت قلوبهم حب المال والجاه ، فمن أجل حب الأول أكلوا أموال الناس بالباطل ، ومن أجل حب الثانى صدوا عن سبيل الله ، فإنهم لو أقروا بصدق محمد صلى الله عليه وسلم وصحة دينه لزمهم أن يتابعوه فيبطل حكمهم وتزول حرمتهم ، ومن ثم كانوا يبالغون فى المنع من متابعته وصد الناس عنه .

وأكل الأموال بالباطل : أخذها بغير حق شرعى ويقع ذلك على صور مختلفة منها :

(١) أخذها رشوة لأجل الحكم أو المساعدة على إبطال حق أو إحقاق باطل ويقوم به صاحب السلطة الدينية أو المدنية ، رسمية كانت أو غير رسمية .

(٢) أخذها بالربا وهو فاش عند اليهود ، ومنه ما يحله لهم رجال الدين ، وإن كانوا يحرمونه فى الفتوى وكتب التشريع ، وأحبارهم يفتونهم بأكل الربا من غير الإسرائيليين ويأكلونه معهم مستحلين له بنص توراتهم المحرفة بدلا من نهيهم عنه وهو (لا تقرض أخاك بربا فضة أو ربا طعام أو ربا شىء مما يقرض بربا ، للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لاتقرضه بربا لكى يباركك الرب إلهك فى كل ماتمتد إليه يدك فى الأرض التى أنت داخل إليها لتمتلكها) .

وكذلك عند النصارى ، وقد وضع لهم الأساقفة أحكاما للربا والقروض فيما يسمونه اللاهوت الأدبى ، فأباحوا فيه بعض الربا دون بعض .

(٣) أخذ سدنة قبور الأنبياء والصالحين والمعابد التى بنيت بأسمائهم ــ هدايا ونذورا ، والوقف على الدير أو الكنيسة قربة عندهم كالوقف على المسجد عندنا ، فأخذ المال وإعطاؤه لبناء المعابد مشروع فى كل دين ، لكن البدعة الوثنية أن يوضع فى المعبد قبر أو صورة أو تمثال يُدْعى فيه صاحبه مع الله تارة ومن دونه أخرى ، وينذر له وحده حينا ومع الله آخر ، فهذه بدع تتبرأ منها أديان الأنبياء جميعا ، والنفقة فيها من الباطل ، وآكلوها من رؤساء الدين وسدنة المعابد من الذين يأكلون أموال الناس بالباطل .

(٤) بذلها لمن يعتقدون فيهم الصلاح والزهد فى الدنيا ليدعوا لهم ويشفعوا عند الله فى قضاء حاجاتهم وشفاء مرضاهم ، اعتقادا منهم أن الله يستجيب دعاءهم ولا يرد شفاعتهم ، أو لظنهم أن الله قد أعطاهم تصرفا فى الكون يقضون به الحاجات من دفع

الضر عمن شاءوا وجلب الخير لمن أحبوا ، وتأولها لهم الرؤساء الدينيون الضالون وقالوا إنها لاتنافى التوحيد الذى جاء به الرسل .

(٥) أخذها جُعْلا على مغفرة الذنوب ، ويتوسلون إلى ذلك بما يسمونه سر الاعتراف ، فيأتى الرجل أو المرأة لدى القسيس أو الراهب الذى يأذن له الرئيس الأكبر بسماع أسرار الاعتراف ومغفرة الذنوب ، فيخلو به أو بها فيقص عليه الخاطىء ما عمل من الفواحش والمنكرات بأنواعها لأجل أن يغفرها له ، وهم يعتقدون أن ما يغفره هؤلاء يغفره الله .

وهذا الجعل يتفاوت بتفاوت ثروة المشترين من الملوك والأمراء وكبار الأغنياء فمن دونهم ، ويعطون بالمغفرة صكوكا يحملونها ليلقوا بها الله تعالى .

وتلك الطقوس خاصة بالأرثوذكس والكاثوليك ، وكان هذا من الأسباب التى أدت إلى الانقلاب الكبير الذى يسمونه الإصلاح (البروتستانت) إذ ترتب على هذه العقيدة فساد كبير فى استباحة الفواحش والمعاصى ، وقد كان الاعتراف أولا بلا ثمن ، ولكن رجال الدين جعلوه وسيلة لسلب الأموال والغنى بغير وجه صحيح .

(٦) أخذهم للأموال على فتاوى لتحليل الحرام وتحريم الحلال إرضاء لشهوات الملوك وكبار الأغنياء ، أو الانتقام من أعدائهم ، أو لظلم رعاياهم ، فهم يعملون ضروبا من الحيل والتأويلات يصورون بها الوقائع بغير صورها ومن ثم خاطب الله أحبار اليهود خطاب احتجاج وتوبيخ بقوله : « قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِى جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلِّمْتُمْ مَالَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلاَ آبَاؤُكُمْ » .

(٧) أخذها من أموال مخالفيهم فى الجنس أو الدين خيانة وسرقة ونحو ذلك كما قال تعالى « وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِقِنْطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ ، وَمِنْهُمْ

مَنْ إِنْ تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَادُمْتَ عَلَيْهِ قَائِماً ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي الأُمِّيِّينَ سَبِيلٌ وَيَقُولُونَ عَلَى اللهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ » .

وفى سرد ما خالف اليهود فيه الحق وادعوا أنه مشروع لهم يقول البوصيرى :

و بأن أموال الطوائف حُللت   لهمُ ربا وخيـــانة وغلو

وصدهم عن سبيل الله هو منعهم الناس عن معرفة الله معرفة صحيحة ، وعبادته على الوجه الذى يرضيه ، ولا عجب فهم مشركون غير موحدين كما علمت مما سلف ، فهم لايعبدون الله بما شرعه الله ، بل بما شرعه البشر ، واليهود قد كفروا بالمسيح وهو المصلح الأكبر فى شريعتهم ، والنصارى يعبدون المسيح وأمه والقديسين ، وجل عباداتهم من صلاة وصيام لم تكن فى عهد المسيح .

ومن أنكى طرقهم فى الصد الطعن فى النبى الأعظم والكتاب الكريم ، وإفسادهم عقائد النشء فى المدارس التى يتعلمون فيها ، ولا يخفى ما لذلك من سوء الأثر فى الدين والأخلاق والاجتماع .

(والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم) أى وكل من يكنز الذهب والفضة ، ولا يخرج منها الحقوق الواجبة ، سواء أكان من الأحبار والرهبان أم كان من المسلمين ، ويؤيد هذا أن يزيد بن وهب قال : مررت بأبى ذر بالرَّبذة (موضع بين مكة والمدينة) فقلت يا أبا ذر ما أنزلك هذه البلاد ، فقال : كنت بالشام فقرأت : (والذين يكنزون الذهب والفضة) فقال معاوية هذه الآية نزلت فى أهل الكتاب ، فقلت إنها فينا وفيهم ، فصار ذلك سببا للوحشة بينى وبينه ، فكتب إلىّ عثمان أن أقبل إلىّ ، فلما قدمت المدينة انحرف الناس عنى كأنهم لم يرونى من قبل ، فشكوت ذلك إلى عثمان ، فقال لى تنح قريبا ، فقلت إنى والله لن أدع ما كنت أقول .

ومعنى قوله : ولا ينفقونها فى سبيل الله أى ولا يؤدون زكاتها ، فقد أخرج مالك والشافعى عن ابن عمر قال : ما أدى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع

أرضين ، ومالم تؤد زكاته فهو كنز وإن كان ظاهرا ، وأخرج ابن عدى والخطيب عن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أىُّ مال أديت زكاته فليس بكنز » وأخرج ابن أبى شيبة وأبو داود والحاكم عن ابن عباس قال : «لما نزلت هذه الآية (والذين يكنزون الذهب والفضة) كبر ذلك على المسلمين وقالوا مايستطيع أحد منا ألا يبقى لولده مالا بعده ، فقال عمر : أنا أفرج عنكم فانطلق وتبعه ثوبان فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال يا نبىّ الله إنه قد كبر على أصحابك هذه الآية فقال : إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليطيب بها ما بقى من أموالكم ، وإنما فرض المواريث عن أموال تبقى بعدكم ، فكبر عمر رضى الله عنه ثم قال له النبى صلى الله عليه وسلم : ألا أخبرك بخير ما يكنز؟ المرأة الصالحة التى إذا نظر إليها الرجل سرته ، وإذا أمرها أطاعته ، وإذا غاب عنها حفظته » .

(يوم يحمى عليها فى نار جهنم) أى أخبرهم بعذاب أليم يصيبهم فى ذلك اليوم الذى يحمى فيه على تلك الأموال المكنوزة فى نار جهنم ، أى بأن توضع وتضرم عليها النار الحامية حتى تصير مثلها .

وفى الآية إيماء إلى أنه يحمى عليها بأعيانها ، والله قادر على إعادتها ، وأمور الآخرة من عالَم الغيب فلا ندرك كنهها ولا صفتها ، فنفوض الأمر فيها إلى عالِم الغيب ، وعلينا الاعتبار بما فيها من إصلاح النفس وتهذيب الأخلاق .

روى مسلم عن أبى هريرة مرفوعا « ما من رجل لا يؤدى زكاة ماله إلا جعل له يوم القيامة صفائح من نار فيكوى بها جنبه وجبهته وظهره » وروى عنه « من آتاه الله مالاً فلم يؤدّ زكاته مُثِّلَ له شجاع (ذكر الحيات) أقرع له زبيبتان يطوّقه يوم القيامة فيأخذ بلِهزِ مَتَيْه (العظمان الناتئان تحت الأذنين) يقول : أنا مالك أنا كنزك ، ثم تلا صلى الله عليه وسلم (سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة) » .

(فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم) وخصت هذه الأعضاء دون بقية الجسد ، لأنهم بالوجوه يستقبلون الناس وأساريرهم منبسطة غبطة لعظم الثروة ،

ويستقبلون الفقراء ، ووجوههم منقبضة من العبوس ، لينفروا ويحجموا عن السؤال ، ولأن الجنوب والظهور كانوا يتقلبون بها على سرر النعمة اضطجاعا واستلقاء ويعرضون بها عن لقاء المساكين وطلاب الحاجات ، فلا يكون لهم فى جهنم استراحة فيها سوى الوقوف إلا بالانكباب على الوجوه كما قال : « يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ » .

(هذا ما كنزتم لأنفسكم) أى تقول لهم ملائكة العذاب الذين يتولون كيّهم : هذا ما كنزتم لمنفعة أنفسكم فكان سبب مضرتها وتعذيبها ، أو هذا الميسم الذى تكوون به هو المال الذى كنزتموه لأنفسكم لتنفردوا بالتمتع به .

(فذوقوا ما كنتم تكنزون) أى فذوقوا وبالَ كنزكم له وإمساككم إياه عن النفقة فى سبيل الله .

وخلاصة هذا — إن ما كنتم تظنونه من منفعة كنزه لأنفسكم لا يشارككم فيها أحد ، قد كان لكم ضرا وعليكم ضدّا ، فقد صار فى الدنيا لغيركم ، وعذابه فى الآخرة لاحقابكم .

وإن من أكبر أسباب الضعف الظاهر الذى نراه فى المسلمين عامة حتى تمكن أعداؤهم من سلب ملكهم ويحاولون صدّهم عن دينهم ـ بخل أغنيائهم ، إذ لو وجهوا هممهم لإنشاء المدارس والمصانع والمعامل لتعليم النشء العلوم الدينية والدنيوية من فنون الحرب وصنع الأسلحة لأمكنهم أن يُخرجوا للأمة رجالا يحفظون الدين والملك ويعيدون إليها مجدها الزائل ، ويجذبون المعتدين عليها إلى الإسلام ويدخلونهم فيه أفواجا أفواجا .

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ ، مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ، ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ، فَلَا تَظْلِمُوا

فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ، وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا، يُحِلُّونَهُ عَامًا وَيُحَرِّمُونَهُ عَامًا لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ، زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧)

شرح المفردات

الشهور : واحدها شهر، وهو اسم للهلال سميت به الأيام ، والكتاب: هو اللوح المحفوظ كما قال : « عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي . فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى » . والحرم : واحدها حرام : من الحرمة بمعنى التعظيم ، والدين : الشرع ، والقيم : أى الصحيح المستقيم الذى لاعوج فيه ، وكافة : أى جميعا ، والنسىء من نسأ الشىء ينسؤه نسأ ومنسأة : إذا أخره ، أى الشهر الذى أنسئ تحريمه : أى أخر عن موضعه .

المعنى الجملى

هذه الآيات عود على بدء إلى الكلام فى أحوال المشركين ، وقد كان الكلام فى قتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ـ من قبيل الاستطراد اقتضاه ما قبله ، وهو حكم قتال المشركين ومعاملتهم .

الإيضاح

(إن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهرا فى كتاب الله يوم خلق السموات والأرض) أى إن مبلغ عدة الشهور اثنا عشر شهرا فيما كتبه الله وأثبته من نظام سير القمر وتقديره منازل منذ خلق السموات والأرض على هذا الوضع المعروف لنا من ليل ونهار إلى الآن .

والمراد بقوله : يوم خلق السموات والأرض ، الوقت الذى خلقهما فيه باعتبار تمامه ونهايته فى جملته وهو ستة أيام من أيام التكوين باعتبار تفصيله وخلق كل منهما وما فيهما .

وقوله : فى كتاب الله، أى فى نظام الخلق والتقدير والسنن الإلهية فيه ، أو فى حكمه التشريعى لحرمة الأشهر الحرم ، وكون الحج أشهرا معلومات ، وكون مايتعلق بالشهور من الفرائض والسنن : كالحج والصيام وعدة المطلقات والرضاع ، فالمعتبر فيه الأشهر القمرية ، ومن حكمة ذلك أنه يجعل الصيام والحج يدور فى جميع أجزاء السنة ، ومنها ما يشق فيه أداؤهما ومنها ما يسهل فيه ذلك .

(منها أربعة حرم) أى منها أربعة فرض الله احترامها وحرّم فيها القتال على لسان إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ونقلت العرب ذلك عنهما بالتواتر القولى والعملى وإن كانت قد أخلت بذلك أحيانا اتباعا لأهوائها ، وهذه الأشهر منها ثلاثة متواليات ، وهى ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ، وواحد فرد وهو رجب .

روى أحمد عن أبى بكرة أن النبى صلى الله عليه وسلم خطب فى حجة الوداع بمنى فى أوسط أيام التشريق قال : « ألا إن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض ، السنة اثنا عشر شهرا منها أربعة حرم ثلاث متواليات ذوالقعدة وذو الحجة والمحرم ورجب مضر الذى بين جمادى وشعبان ، ثم قال : ألا أىّ يوم هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ، قلنا بلى . ثم قال : أى شهر هذا ؟ قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، ثم قال : أليس ذا الحجة ؟ قلنا بلى ، ثم قال : أى بلد هذا ، قلنا الله ورسوله أعلم ، فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليست البلدة ؟ قلنا بلى . قال فإن دماءكم وأموالكم ـ وأحسبه قال ـ وأعراضكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، وستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ؛ ألا لاترجعوا بعدى ضلالا يضرب بعضكم رقاب بعض ؛ ألاهل بلغت ؟ ألا فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فلعل من يبلغه يكون أوعى له من بعض من سمعه » .

(ذلك الدين القيم) أى ما ذكر من عدة الشهور وتقسيمها إلى حرم وغيرها وعدد الحرم منها ـ هو الحق الذى يدان الله تعالى به دون النسىء .

وقد يكون المعنى ـ ذلك هو الشرع الصحيح الذى كان عليه إبراهيم و إسماعيل فى الحج وغيره ، ومايتعلق بالأشهر من الأحكام ، وقد تمسكت العرب به وراثة منهما حتى إن الرجل يلقى فيها قاتل أبيه أو أخيه فلا يعرض له بسوء على شدتهم فى أخذ الثأر وضراوتهم بسفك الدماء .

(فلا تظلموا فيهن أنفسكم) أى فلا تظلموا فى الأشهر الحرم أنفسكم باستحلال حرامها ، فإن الله عظمها وعظم حرمتها .

وقد خص بعض الأزمنة و بعض الأمكنة بأحكام من العبادات تقتضى ترك المحرمات فيها تنشيطا للنفوس على زيادة العناية بما يزكيها و يطهرها ، فقد جرت عادة الإنسان أن يسأم الاستمرار على حال واحدة تشق عليه ، ومن ثم جعل الله العبادات الدائمة خفيفة لامشقة فى أدائها كالصلوات الخمس ، وخص يوم الجمعة بوجوب الاجتماع العام لصلاة ركعتين وسماع خطبتين تذكيرا وموعظة حسنة تُقوّى فى المؤمن حب الخير والتعاون على البر والتقوى ، وخص رمضان بوجوب صيامه فى كل سنة ، وخص أياما معدودات من ذى الحجة بأداء مناسك الحج ، وجعل ما قبلها وما بعدها من الأيام الحرم استعدادا للسفر لأداء النسك ، وحرّم مكة وما حولها فى جميع السنة لتأمين الحج والعمرة التى تؤدى فى كل وقت ، وحرم رجب فى وسط السنة لتقليل شرور القتال وتخفيف أوزاره ولتسهيل السفر لأداء العمرة فيه .

(وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) أى قاتلوهم جميعا وكونوا يدا واحدة على دفع عدوانهم وكف أذاهم كما يقاتلونكم كذلك ، ذاك أنهم إنما يقاتلونكم لدينكم و إطفاء نوره لا للانتقام ولا للعصبية ولا لكسب المال كما هو دأبهم فى قتال قويهم لضعيفهم ، فأنتم حينئذ أجدر وأولى بالاتحاد لدفع العدوان وجعل كلمة الله هى العليا ، وكلمة الشيطان هى السفلى ، والله عزيز حكيم .

(واعلموا أن الله مع المتقين) بنصرهم ومعونتهم وتوفيقهم لما فيه خيرهم وصلاحهم، فمن يتق الظلم والعدوان فى الأرض وأسباب الفشل والخذلان فى القتال من تفرق الكلمة واختلاف الأهواء ومخالفة سنن الله فى الاجتماع ـ يكن الله معه ، ومن كان الله معه فلا يغلبه أحد .

(إنما النسىء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله) المراد بالنسىء تأخير حرمة شهر إلى آخر .

بيان هذا أن العرب ورثت من ملة إبراهيم وإسماعيل تحريم القتال فى الأشهر الحرم لتأمين الحج وطرقه ، ولما طال عليهم الأمد غيروا وبدلوا فى المناسك وفى تحريم الأشهر ولاسيما المحرم ، إذ كان يشق عليهم ترك القتال وشن الغارات ثلاثة أشهر متواليات ، فأحلوا شهر المحرم وأنسئوا تحريمه إلى صفر لتبقى الأشهر الحرم أربعة كما كانت ، وفى ذلك مخالفة للنص ولحكمة التحريم .

وقد كان من عادتهم فى ذلك أن يقوم رجل من كنانة فى أيام منى حيث يجتمع الحجيج فيقول : أنا الذى لا يرد لى قضاء ، فيقولون صدقت ، فأخر عنا حرمة المحرم واجعلها فى صفر ، فيحل لهم المحرم ، وبذلك يجعل الشهر الحرام حلالا ، ثم صاروا ينسئون غير المحرم ويسمون النسىء باسم الأصل ، فتتغير أسماء الشهور كلها .

وبذلك يعلم أن النسىء تشريع دينى ملتزم غيروا به ملة إبراهيم اتباعا للهوى وسوء التأويل ، ومن ثم سماه الله زيادة فى الكفر ، أى إنه كفر بشرع دين لم يأذن به الله زائد على شركهم بالله وكفرهم به ، إذ حق التشريع له وحده ، فمنازعته فى ذلك شرك فى ربوبيته ، وهم يضلون به سائر الكفار الذين يتبعونهم فيه ويظنون أنهم لم يخرجوا به عن ملة إبراهيم ، إذ واطئوا عدة ما حرم الله من الشهور فى ملته ولم يزيدوا ولم ينقصوا وإن قدّموا وأخروا مع أن المقصد فى ذلك العدد والتخصيص لا مجرد العدد ، وإذ لم يفعلوا ذلك فقد استحلوا ما حرم الله .

(زين لهم سوء أعمالهم) أى زين لهم الشيطان أعمالهم بهذه الشبهة الباطلة ، إذا اكتفوا بالعدد ولم ينقصوا منه شيئا ولم يدركوا حكمة التخصيص بالأشهر المعينة .

(والله لا يهدى القوم الكافرين) إلى الحكمة فى أحكام شرعه وجعلها مبنية على مصالح الناس فى دينهم ودنياهم أفرادا وجماعات ، فالهداية الموصلة إلى سعادة الدارين من آثار الإيمان والعمل الصالح كما قال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ » .

وأما الكافرون فيتبعون أهواءهم وما يوسوس لهم به الشيطان فيوقعهم فى الشقاء والخسران .

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ ؟ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ ؟ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ (٣٨) إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣٩) إِلَّا تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا ، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا ، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٠) .

شرح المفردات

النفر والنفور : الفرار من الشىء أو الإقدام عليه بخفة ونشاط ، يقال نفرت الدابة والغزال نفورا ، ونفر الحجيج من عرفات نفرا ، واستنفر الملك العسكر إلى القتال ،

وأعلن النفير العام فنفروا خفافا وثقالا ، والتثاقل : التباطؤ ، وهو من الثقل المقتضى للبطء ، والمتاع : مايتمتع به من لذات الدنيا ، والغار : النقب العظيم فى الجبل والمراد به هنا غار جبل ثور ، والصاحب : هو أبو بكر رضى الله عنه ، والسكينة : سكون النفس واطمئنانها وهو ضد الانزعاج والاضطراب ، وكلمة الله : هى التوحيد ، وكلمة الذين كفروا : هى الشرك والكفر .

المعنى الجملى

الكلام من هنا إلى آخر السورة كلام فى غزوة تبوك وما لابسها من هتك ستر المنافقين وضعفاء الإيمان وتطهير قلوب المؤمنين من عوامل الشقاق ، إلا آيتين جاءتا فى آخرها وإلا ما جاء فى أثنائها من بعض الحكم والأحكام جريا على سنة القرآن فى أسلوبه الذى اختص به .

ومناسبة الآيات لما قبلها أن الكلام السابق كان فى حكم القتال مع اليهود وبيان حقيقة أحوالهم من خروجهم من هداية الدين فى العقائد والأعمال والفضائل التى تهذب النفوس وتزكيها ، والكلام هنا فى غزوة تبوك والمراد بها قتال الروم وأتباعهم من عرب الشام وجميعهم نصارى ، وبهذا استبان ارتباط الآيات بما قبلها .

وتبوك موضع فى منتصف الطريق بين المدينة ودمشق ، فهى تبعد عن الأولى ٦١٠ ك وعن الثانية ٦٩٢ ك وكان السبب فى هذه الغزوة ما بلغ المسلمين من الأنباط الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة — من أن الروم جمعت جموعا معهم لخم وجذام وغيرهم من متنصرة العرب حتى وصلت طلائعهم إلى البلقاء بإمرة قائد عظيم منهم يدعى قُباذ وعدد جنده أربعون ألفا ، فندب النبى صلى الله عليه وسلم الناس للخروج لقتالهم وأعلمهم الجهة التى يغزونها .

وكان عثمان قد جهز عِيرا إلى الشام للتجارة ، فقال يا رسول الله : هذه مائتا بعير بأقتابها وأحلاسها ، ومائتا أوقية (من الفضة) فقال النبى صلى الله عليه وسلم «لايضر

عثمان ما عمل بعدها » ثم خرج لمقابلتهم ، ولما لم يجد من يقاتله عاد ولم يهاجم شيئا من بلاد الشام ، وكان ذلك فى رجب سنة تسع .

الإيضاح

(يأيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض)؟ الخطاب للمؤمنين فى جملتهم تربية لهم بما لعله وقع من منافقيهم وضعفائهم ـ أى يأيها الذين آمنوا ما الذى عرض لكم مما يخل بالإيمان أو بكماله من التثاقل والتباطؤ عن النهوض بما طلب منكم ، و إخلادكم إلى الراحة واللذة ، حين قال لكم الرسول انفروا فى سبيل الله لقتال الروم الذين تجهزوا لقتالكم والقضاء على دينكم الحق الذى هو سبيل سعادتكم ؟ .

فآية صدق الإيمان بذل النفس والمال فى سبيل الله كما قال : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » .

وكان من أسباب تثاقلهم أمور :

(ا) إن الزمن كان وقت حر شديد .

(ب) إنهم كانوا قريبى عهد بالرجوع من غزوتى الطائف وحنين .

(حـ) إنهم كانوا فى عسرة شديدة وجهد جهيد من قلة الطعام .

(ى) إن موسم الرطب بالمدينة قد تم صلاحه ، وآن وقت تلطف الحر ، لأن رجبا وافق أكتوبر فى تلك السنة .

روى ابن جرير عن مجاهد قال : أمروا بغزوة تبوك بعد الفتح و بعد حنين و بعد الطائف ، أمروا بالنفير فى الصيف حين اخترفت النخل (اجتنى ثمرها) وطابت الثمار واشتهوا الظلال وشق عليهم المخرج ... فقالوا منا الثقيل وذو الحاجة والضيعة والشغل والمنتشر به أمره فى ذلك كله .

وكان من دأب النبى صلى الله عليه وسلم إذا خرج إلى غزوة أن يورّى بغيرها لما تقتضيه المصلحة من الكتمان إلا فى هذه الغزوة فقد صرح بها ليكون الناس على بصيرة لبعد الشقة وقلة الزاد والظهر .

وكانت حكمة الله فى إخراجهم ـ وهو يعلم أنهم لايلقون فيها قتالا ـ تمحيص المؤمنين وخزى المنافقين وفضيحتهم فيما كانوا يسرون من الكفر وتربص الدوائر بالمؤمنين .

(أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة) أى أرضيتم بلذات الدنيا الناقصة الفانية بدلا من سعادة الآخرة الكاملة الباقية ؟ ومن يفعل ذلك فقد استبدل الذى هو أدنى بالذى هو خير .

(فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) أى فما هذا الذى تتمتعون به فى الدنيا مشوبا بالمنغصات والآلام إذا قيس بما فى الآخرة من النعيم المقيم، والرضوان من المولى إلا شىء قليل لايرضى عاقل أن يتقبله بدلا منه .

روى أحمد ومسلم والترمذى عن المِسْوَر أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : «والله مافى الدنيا فى الآخرة إلا كما يجعل أحدكم إصبعه فى اليم ثم يرفعها ، فلينظر بم يرجع» ؟ أى إن نعيم الدنيا فى قلته وقلة زمنه إذا قيس إلى نعيم الآخرة الطويل الأمد كانت تلك حاله .

(إلا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم) أى إن لم تخرجوا إلى ما دعاكم الرسول صلى الله عليه وسلم للخروج إليه ـ يعذبكم عذابا أليما فى الدنيا يهلككم به كقحط وغلبة عدو ، ويستبدل بكم قوما غيركم يطيعونه ويطيعون رسوله لأنه قد وعد بنصره ، واظهار دينه على الدين كله و (ولن يخلف الله وعده) .

وقد جرت سنته بأن الأمم التى لاتدافع عن نفسها ولا تحمى ذمارها ، لا بقاء لها، وتكون طعاما للآكلين ، وغذاء شهيا للمستعمرين .

(ولا تضروه شيئا) أى ولا تضروا الله شيئا من الضرر فى تثاقلكم عن طاعته ونصرة دينه ، فهو الغنى عنكم فى كل أمر ، وهو القاهر فوق عباده ، وكل من فى السموات والأرض مسخر بأمره ، ولكن قد جعل للبشر شيئا من الاختيار ليكون حجة عليهم فيما سيلقون من الجزاء على أعمالهم .

(والله على كل شىء قدير) أى والله قادر على كل شىء ، فهو يقدر على إهلاككم والإتيان بغيركم (إن أصررتم على عصيان رسوله وتثاقلتم عن الدفاع عن حوزة دينه) ممن يجاهدون فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ولا يخشون فى الحق لومة اللائمين كما قال : « وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ » .

ثم رغبهم ثانية فى الجهاد فأبان لهم أنه تعالى المتوكل بنصره ـ على أعداء دينه ـ أعانوه أو لم يعينوه ، وهو قد فعل ذلك به وهو فى قلة من العدد والعدو فى كثرة ، فكيف وهو من العدد فى كثرة والعدو فى قلة فقال :

(إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لاتحزن إن الله معنا) أى إن لم تنصروا الرسول الذى استنصركم فى سبيل الله على من أرادوا قتاله من أعداء الله وأعداء رسوله ـ فسينصره الله بقدرته وتأييده ، كما نصره حين أجمع المشركون على الفتك به واضطروه إلى الخروج والهجرة حال كونه أحد اثنين وثانيهما أبو بكر فى غار جبل ثور حين كان يقول لصاحبه إذ رأى منه أمارة الحزن : لاتخف ولا تحزن إن الله معنا بنصره ومعونته وحفظه وتأييده فلن يعلم بنا المشركون ولن يصلوا إلينا .

روى البخارى ومسلم من حديث أنس قال : «حدثنى أبو بكر قال : كنت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى الغار فرأيت آثار المشركين ، فقلت يا رسول الله لو أن أحدهم رفع قدمه لأبصرنا تحت قدمه ، فقال عليه الصلاة والسلام (يا أبا بكر ماظنك باثنين الله ثالثهما) .

وخلاصة ذلك — إلا تنصروه بالنفر لما استنفركم له ، فإن الله قد ضمن له النصر فهو ينصره كما نصره فى الوقت الذى اضطره المشركون إلى الهجرة ، حين كان ثانى اثنين فى الغار وكان صاحبه قد ساوره الحزن فقال له : لاتحزن إن الله معنا ، ونحن لانكلف أكثر مما فعلنا من الاستخفاء .

(فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها) أى فأنزل الله طمأنينته التى يسكن عندها القلب على رسوله وقواه بجنود من عنده وهم الملائكة الذين أنزلهم يوم بدر والأحزاب وأحد ، وقيل بل هم ملائكة أيده بهم فى حال الهجرة يسترونه هو وصاحبه عن أعين الكفار ويصرفونها عنهما ، فقد خرج والشبان المتواطئون على قتله وقوف ولم ينظروه .

(وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا) أى وجعل كلمة الشرك والكفر هى السفلى ، وكلمة الله وهى دينه المبنى على أساس توحيده تعالى والمشتمل على الأحكام والآداب الفاضلة ، والخالى من شوائب الشرك وخرافات الوثنية ـ هى العليا بظهور نور الإسلام وإزالة سيادة المشركين فى تلك الجزيرة بعد كفاح طويل دارت فيه الدائرة عليهم : « وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً » .

(والله عزيز حكيم) أى والله غالب على أمره ، حكيم إذ يضع الأشياء فى مواضعها ، وقد نصر رسوله بعزته وأظهر دينه على الأديان كلها بحكمته ، وأذل من ناوأه من المشركين .

انْفِرُوا خِفَافاً وَثِقَالاً وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ اللهِ ، ذٰلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٤١) .

المعنى الجملى

بعد أن توعد من لم ينفروا مع الرسول وتثاقلوا حين استنفرهم ـ أتبعه بالأمر الجزم الذى لاهوادة فيـه ، فأوجب النفير العام على كل فرد ، فلا عذر لأحد فى التخلف وترك الطاعة .

الإيضاح

(انفروا خفافا وثقالا) الخفاف واحـدها خفيف ، والثقال واحـدها ثقيل ، وهما يكونان فى الأجسام وصفاتها من صحة ومرض ونحافة وسمن ونشاط وكسل ، وشباب وكبر ، ويكونان فى الأسباب والأحوال كالقلة والـكثرة فى المـال ، ووجود الراحلة وعدم وجودها ، ووجود الشواغل أو انتفاؤها .

أى انفروا على كل حال من يسر أوعسر وصحة أو مرض وغنى أو فقر وقلة العيال أو كثرتهم أو غير ذلك مما ينتظم فى مساعدة الأسباب أو عدم مساعدتها بعد الإمكان والقدرة فى الجملة .

فإذا أعلن النفير العام وجب الامتثال إلا حال العجز التام، وهو ما بينه الله تعالى فى قوله : « لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَيَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلهِ وَرَسُولِهِ » .

ويؤيد هذا التعميم فى عموم الأحوال قول أبى أيوب الأنصارى وقد شهد المشاهد كلها إلا غزاة واحدة : قال الله (انفروا خفافا وثقالا) فلا أجدنى إلا خفيفا أو ثقيلا ، وروى عن أبى راشد الحرانى قال : وافيت المقداد بن الأسود فارس رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا على تابوت من توابيت الصيارفة بِحِمْص ـ وقد فضل عنها من عُظْمِه ـ يريد الغزو ، فقلت قد أعذر الله إليك ، فقال أبت علينا سورة البعوث (يريد براءة) انفروا خفافا وثقالا .

وقد فهم سلفنا الصالح القرآن على هدى النبى وعمله ففتحوا البلاد وسادوا العباد ، لـكن بعد أن انحرفوا عن هديه وتدبر معانيه واكتفوا بتلاوته والتغنى بألفاظه ذلوا وضعفوا واستكانوا وسادتهم الشعوب الأخرى وتقوّض ملـكهم من أطرافه وأصبحوا من المستضعفين وصاروا عبيدا لأعدائهم .

(وجاهدوا بأموالـكم وأنفسكم فى سبيل الله) أى وجاهدوا أعداءكم الذين يقاتلون فى سبيل الطاغوت و يفسدون فى الأرض ، وابذلوا أموالـكم وأنفسكم فى إقامة ميزان العدل و إعلاء كلة الحق .

فمن استطاع منكم الجهاد بماله ونفسه وجب عليه ذلك ، ومن قدر على أحدهما وجب عليه ما كان فى مقدرته .

وقد كان المسلمون فى الصدر الأول ينفقون على أنفسهم من أموالهم و يبذلونها لغيرهم إن استطاعوا كما فعل عثمان رضى الله عنه فى تجهيز جيش العسرة فى هذه الغزوة، وكما فعل غيره من ذوى اليسار من الصحابة .

ولما أصبح فى بيت المـال فضلة من المـال بكثرة الغنائم صار الملوك والسلاطين يجهزون الجيوش من بيت المال ، وكذلك تفعل الآن الدول المتمدينة ، فتخصص جزءا من المال كل عام للنفقات الحربية من برّية و بحرية ، و يزداد هذا المال إذا دعت الحاجة إلى زيادته، بل قد يجعلون أموال الدولة كلها ومرافقها وقفا على المصالح الحربية، وقد كان المسلمون أحق منهم بذلك وأجدر .

(ذلـكم خير لـكم) أى ذلـكم الذى أمرتم به من النفر والجهاد الذى هو الوسيلة فى حفظ كيان الأمم وعلوّ كلتها ـ خير لـكم فى دينكم ودنياكم ؛ أما فى الدين فلا سعادة إلا لمن ينصر الحق ويقيم العدل باتباع هدى الدين والعمل بالشرع الحـكيم . وأما فى الدنيا فإنه لاعزّ للأمم ولا سيادة لهـا إلا بالقوة الحربية التى هى وسيلة لدفاع العدو وكبح جماحه .

(إن كنتم تعلمون) أى إن كنتم تعلمون ذلك علما يبعث على العمل ، فانفروا وجاهدوا ، وقد علم فضل ذلك المؤمنون الصادقون فامتثلوا أمره واهتدوا بهديه .

ولما أمرهم بالنفر تخلف بعض المنافقين لأعذار ضعيفة ، وتخلف ناس آخرون من المؤمنين فأنزل الله فى أثناء السفر قوله :

لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَاتَّبَعُوكَ ، وَلَـكِنْ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ، وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ ، يُهْلِكُونَ أَنْفُسَهُمْ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَـكَاذِبُونَ (٤٢) عَفَا اللَّهُ عَنْكَ ، لِمَ أَذِنْتَ لَهُمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَتَعْلَمَ الْكَاذِبِينَ (٤٣) .

شرح المفردات

العرَض : ما يعرض للمرء من منفعة ومتاع مما لاثبات له ولا بقاء وليس فى الوصول إليه كبير عناء ، ويقال سير قاصد وسفر قاصد : أى هين لامشقة فيه من القصد وهو الاعتدال ، والشقة : الطريق لاتقطع إلا بعناء ومشقة ، والعفو : التجاوز عن التقصير وترك المؤاخذة عليه .

المعنى الجملى

بعد أن رغبهم سبحانه فى الجهاد فى سبيل الله ، وبين أن فريقا منهم تباطئوا وتثاقلوا — قفى على ذلك ببيان أن فريقا منهم تخلفوا عنه مع كل ما تقدم من الوعيد والحث على الجهاد وطفقوا ينتحلون الأعذار الواهية ، ويستأذنونه صلى الله عليه وسلم فى القعود والتخلف ليأذن لهم .

الإيضاح

(لو كان عرضا قريبا وسفرا قاصدا لاتبعوك) أى لو كان ما دعوتهم إليه منفعة قريبة المنال ليس فى الوصول إليها كبير عناء ، وسفرا هينا لاتعب فيه ، لاتبعوك وأسرعوا بالنفر إليه ، إذ حب المنافع المادية والرغبة فيها طبيعى فى الإنسان ، ولا سيما إذا كانت سهلة المأخذ قريبة المنال وكان من يسعى إليها ممن لايوقنون باليوم الآخر وما فيه من الثواب المقيم والأجر العظيم كأولئك المنافقين .

(ولكن بعدت عليهم الشقة) أى ولكنك استنفرتهم إلى موضع بعيد وكلفتهم سفرا شاقا ، لأنك استنهضتهم وقت الحر وزمن القيظ ، وحين الحاجة إلى السكنّ ، فتخلفوا جبنا وحبًّا للراحة والسلامة .

(وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم) أى وسيحلفون لك عند رجوعك من غزوة تبوك كما قال : « يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ » قائلين لو استطعنا الخروج إلى الجهاد وانتفت الأعذار المانعة منه لخرجنا معكم، فما كان تخلفنا إلا اضطرارا.

(يهلكون أنفسهم) أى يهلكون أنفسهم بإيقاعهم فى العذاب بامتهان اسم الله بالحلف الكاذب لستر نفاقهم و إخفائه ، تأييدا للباطل بالباطل ، وتقوية للإجرام بالإجرام ، روى أنه صلى الله عليه وسلم قال : « اليمين الفاجرة تدع الديار بلاقع » .

(والله يعلم إنهم لكاذبون) فى حلفهم بالله وقولهم لو استطعنا لخرجنا معكم ، فهم كانوا للخروج مطيقين ، إذ كانوا أصحاء الأبدان أقوياء الأجسام ذوى يسرة فى المال .

ثم عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى إذنه لمن تخلف عنه من المنافقين حين شخص إلى تبوك لغزو الروم فقال :

(عفا الله عنك) أى عفا عنك ما أدى إليه اجتهادك من الإذن لهم حين استأذنوك وكذبوا عليك فى الاعتذار .

(لم أذنت لهم ؟) أى لأى شىء أذنت لهم بالقعود والتخلف كما أرادوا ، وهلا

تريثت فى الأذن لهم وتوقفت عنه حتى ينجلى أمرهم وينكشف حالهم، وإلى ذلك الإشارة بقوله :

(حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين) أى حتى يتبين لك الفريقان، فتعامل كلاًّ بما ينبغى أن يعامل به ، فإن الكاذبين لايخرجون ، أذنت لهم أو لم تأذن ، فكان من الأجدر بك أن تتلبث فى الإذن أو تمسك عنه اختبارا لحالهم .

روى عن مجاهد فى قوله (عفا الله عنك لم أذنت لهم ؟) قال هم ناس قالوا استأذنوا رسول الله ، فإن أذن لكم فاقعدوا ، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا ، وعن قتادة فى قوله (والله يعلم إنهم لكاذبون) لقد كانوا يستطيعون الخروج ، ولكن كان تبطئة من عند أنفسهم وزهادة فى الجهاد .

لَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ (٤٤) إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُكَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ، فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ (٤٥) وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ (٤٦) .

المعنى الجملى

تقدم أن قلنا إن هذه السورة تسمى الفاضحة ، لأنها فضحت أنواع النفاق وكشفت أحوال المنافقين ، ومن ثم نقل البغوى وغيره عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعرف المنافقين حتى نزلت سورة براءة ، والمراد أنه لم يكن يعرفهم كلهم ويعرف شئونهم بهذا التفصيل حتى نزلت .

وهذه الآيات أول ما نزل فى التفرقة بين المنافقين والمؤمنين فى القتال .

الإيضاح

(لايستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى ليس من شأن المؤمنين بالله الذى كتب عليهم القتال ، وباليوم الآخر الذى يوفى فيه كل عامل جزاء ما عمل ، أن يستأذنوك أيها الرسول فى أمر الجهاد فى سبيل الله بأموالهم وأنفسهم إذا جد ما يدعو إلى ذلك ، بل يقدمون عليه عند وجوبه من غير استئذان كما قال « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ » بل هم يستعدون له وقت السلم بإعداد القوة ورباط الخيل .

وهم بالأولى لا يستأذنونك فى التخلف عنه بعد إعلان النفر العام ، وأقصى ما قد يقع من فريق منهم هو التثاقل والتباطؤ إذا كان النصر بعيدا .

روى عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من خير معاش الناس لهم رجل ممسك بعنان فرسه فى سبيل الله يطير على متنه كلما سمع هيعة أو فزعا طار على متنه يبتغى القتل والموت مظانه الخ». والمراد أن خير أعمال الرجل أن يعد فرسه رباطا فى سبيل الله ، كلما سمع صيحة لقتال أو فزعة (أى دعوة للاغاثة) طار على فرسه يبتغى القتل والموت فى مظانه » أى المواضع التى يظن أنه يلقى القتل فيها .

(والله عليم بالمتقين) أى والله عليم بمن خافه فاتقاه باجتناب ما يسخطه وفعل ما يرضيه بالمسارعة إلى طاعته فى غزو عدوه وجهادهم بماله ونفسه ، وليس من دأبهم أن يستأذنوا بالتخلف كراهة للقتال .

وفى الآية إيماء إلى أنه لا ينبغى الاستئذان فى أداء شىء من الواجبات ولا فضائل العادات كقرى الضيف وإغاثة الملهوف وسائر أعمال المعروف .

ثم صرح بما فهم من الكلام السابق زيادة فى التوكيد والتقرير فقال :

(إنما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم

فى ريبهم يترددون) أى إنما يستأذنك فى التخلف عن الجهاد معك من غير عذر من لا يصدّقون بالله ولا يقرون بتوحيده ولا باليوم الآخر ، فهؤلاء يرون بذل المال مغرما يفوّت عليهم بعض المنافع ، وهم لا يرجون ثوابا عليه كما يرجو المؤمنون ، ويرون الجهاد بالنفس آلاما ومتاعب ، وقد وقع لهم الريب والشك فى الدين من قبل ، فلم تطمئن به قلوبهم ، ولم تذعن له نفوسهم ، فهم متحيِّرون فى أمرهم مذبذبون فى عملهم ، يوافقون المؤمنين فيما يسهل أداؤه من عبادات الإسلام من صلاة وصيام ، ويلتمسون الخلاص فيما يشق عليهم من تكاليفه ، ويعتذرون بالمعاذير الكاذبة للهرب من القيام بشىء منها .

وقد جاء فى بعض الروايات أن عدد هؤلاء كان تسعة وثلاثين رجلا .

(ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عُدة) أى ولو صحت نيتهم للخروج لاستعدوا له وأخذوا الأهْبة من زاد وراحلة ونحو ذلك مما يحتاج إليه المسافر لمثل هذا السفر البعيد ، وقد كانوا مستطيعين لذلك ولم يفعلوا .

(ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم) الانبعاث توجيه الإنسان أو الحيوان إلى الشىء بقوة كبعث الرسل وبعث الموتى ، والتثبيط التعويق عن الأمر والمنع منه .

أى كره الله نفرهم وخروجهم مع المؤمنين لما فيه من الضرر العائق لهم عما أحبه من نصرهم ، فثبطهم بما أحدث فى قلوبهم من المخاوف التى هى مقتضى سننه من تأثير النفاق فيها ، ومن ثم لم يعدوا للخروج عدته ، لأنهم لم يريدوه ، وإنما أرادوا بالاستئذان ستر ما عزموا عليه من المخالفة والعصيان .

(وقيل اقعدوا مع القاعدين) أى وقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم ذلك بعبارة تدل على السخط لا على الرضا ، أى اقعدوا مع الأطفال والزَّمْنى والعجزة والنساء ، وهم قد حملوه على ظاهره لموافقته لما يريدون .

لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ ، وَاللهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٤٧) لَقَدِ ابْتَغَوُا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَّبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللهِ وَهُمْ كَارِهُونَ (٤٨) .

شرح المفردات

الخبال: الاضطراب فى الرأى والفساد فى العمل، كضعف القتال والخلل فى النظام، ويقال وضع الرجل إذا عدا مسرعا، وأوضع راحلته إذا حملها على الإسراع، وخلال الأشياء: مايفصل بينها من فروج ونحوها، والفتنة: التشكيك فى الدين والتخويف من الأعداء، وسماعون لهم: أى ضعفاء العزيمة يسمعون قولهم، وتقليب الشيء: تصريفه فى كل وجه من وجوهه والنظر فى كل ناحية من أنحائه؛ والمراد أنهم دبروا الحيل والمكايد ودوّروا الآراء فى كل وجه لإبطال دينك .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه فيما سلف أن استئذانهم فى التخلف عن القتال إنما كان سترا لنفاقهم وتغطية لعصيانهم — قفى على ذلك ببيان المفاسد التى كانت تنجم من خروجهم لو خرجوا وحصرها فى أمور ثلاثة :

(١) الاضطراب فى الرأى وفساد النظام .

(٢) تفريق الكلمة بالسعى فيما بينكم بالنميمة .

(٣) إن فيكم ناسا من ضعفاء الإيمان يسمعون كلامهم ويقبلون قولهم .

الإيضاح

(١) (لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلا خبالا) أى لو خرج هؤلاء المنافقون المستأذنون فى القعود معكم ، ما زادوكم قوة ومنعة و إقداما كما هو الشأن فى القوى المتحدة فى العقيدة والمصلحة ، بل زادوكم اضطرابا فى الرأى وضعفا فى القتال ومفسدة للنظام ، كما حدث مثل ذلك فى غزوة حنين ، فقد ولّى المنافقون الأدبار فى أول المعركة وولى على إثرهم ضعفاء الإيمان من طلقاء فتح مكة ، ومن ثم اضطرب نظام الجيش ، فولى أكثر المؤمنين معهم بلا تدبر ولا تفكير كما هو الشأن فى مثل هذه الأحوال .

(٢) (ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة) أى ولأسرعوا فى الدخول فيما بينكم سعيا فى النميمة وتفريق الكلمة، يبغون بذلك تثبيطكم عن القتال وتهويل أمر العدو و إيقاع الرعب فى قلوبكم .

(٣) (وفيكم سماعون لهم) أى وفيكم ناس من ضعفاء الإيمان أو ضعفاء العزم يسمعون كلامهم ، فإذا ألقوا إليهم شيئا مما يوجب ضعف العزائم قبلوه وفتروا بسببه عن القيام بأمر الجهاد كما ينبغى .

ووجه العتاب على الإذن فى قعودهم مع ماقصّ الله تعالى من المفاسد التى تترتب على خروجهم ـ أنهم لو قعدوا بغير إذن منه لظهر نفاقهم بين المسلمين بادئ ذى بدء ، فلم يستطيعوا مخالطتهم ولا السعى فيما بينهم بالأراجيف وقالة السوء التى يقبح أثرها ، وتسوء عاقبتها .

(والله عليم بالظالمين) علما يحيط بظواهرهم و بواطنهم وأعمالهم ما تقدم منها وما تأخر ، و بما هم مستعدون له فى كل حال مما وقع ومما لم يقع ، فأحكامه فيهم على علم تام لاظن فيه ولا اجتهاد كاجتهاد الرسول صلى الله عليه وسلم فى الإذن لهم ، والذى تثبت هذه الآية أنه شر لا خير فيه وهو ضعف لا قوة ، ولكنه صلى الله

عليه وسلم لم يكن يعلم أنهم لا يخرجون إذا لم يأذن لهم ، فهذا من أخبار الغيب التى لا يعلمها إلا الله ، وهو لم يعلمه قبل نزول هذه الآيات .

وقد كان من حكمة الله فى تربية رسوله وتكميله أن يبين له بعض الحقائق بعد اجتهاده فيها لتكون أوقع فى نفسه ونفس أتباعه فيحرصوا على العمل بها ، ولا يحكموا أهواءهم فيها ، وكذلك كان السلف الصالح يسيرون على نهجه ، ويهتدون بهديه .

(لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون) أى ولقد ابتغى هؤلاء المنافقون إيقاع الفتنة فى المسلمين وتفريق شملهم من قبل هذه الغزوة فى غزوة أحد حين اعتزلهم عبد الله بن أبىّ بن سلول زعيم المنافقين بثلث الجيش فى موضع يسمى الشوط بين المدينة وأحد ، وطفق يقول للناس : أطاع النبى الولدان ومن لا رأى له ، فعلام نقتل أنفسنا ؟، وكان من رأيه عدم الخروج إلى أحد فرجع بمن اتبعه من المنافقين ، وكاد يتبعه بنو سلمة و بنو حارثة فيرجعون ولكن عصمهما الله من الفتنة .

وكان دأب المنافقين أن يدبروا له الحيل والمكايد ليبطلوا أمره ، فكان لهم ضلع مع اليهود وضلع مع المشركين فى كل ما فعلا من عداوته وقتال المؤمنين — حتى جاء النصر الذى وعده ربه وظهر دين الله وعلا شرعه بالتنكيل باليهود الغادرين الناكثين للعهود ، والنصر على المشركين بفتح مكة ودخول الناس فى الإسلام أفواجا وهم كارهون لذلك ، حتى لقد كانوا يمنون أنفسهم بظهور المشركين على المؤمنين فى حنين وعودة الشرك إلى قوته .

وفى الآيتين تسلية لرسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين عن تخلف المنافقين و بيان ما ثبطهم الله تعالى لأجله ، وفيه هتك أستارهم و إزاحة أعذارهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِى وَلاَ تَفْتِنِّى ، أَلاَ فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا ، وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) إِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ، وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللهُ لَنَا ، هُوَ مَوْلاَنَا ، وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا، فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) .

المعنى الجملى

هذه الآيات سيقت لبيان أقوال قالها المنافقون ، بعضها قيلت جهرا ، وبعضها أكنّوه فى أنفسهم ، وأعذار سيعتذرون بها غير ما سبق منهم ، وشئون أخرى لهم أكثرها من أنباء الغيب .

الإيضاح

(ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى) أى ومن المنافقين ناس يستأذنونك فى التخلف عن القتال حتى لا يفتتنوا بنساء الروم .

روى ابن أبى حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول لجد بن قيس « يا جد هل لك فى جلاد بنى الأصفر ؟ قال جدّ ، وكان من شيوخ المنافقين : أتأذن لى يارسول الله فإنى رجل أحب النساء، وإنى أخشى إن أنا رأيت نساء بنى الأصفر أن أفتتن ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو معرض عنه (قد أذنت لك) فنزلت الآية » .

وقد رد الله شبهته وشبهة من وافقه عليها بقوله :

(ألا فى الفتنة سقطوا) أى فليعلموا أنهم بمقالتهم هذه سقطوا وتردّوا فى هاوية الفتنة ، حين اعتذروا بالمعاذير الكاذبة ، من حيث يزعمون اتقاء التعرض للإثم بالنظر إلى جمال نساء الروم ، وشغل القلب بمحاسنهن .

(و إن جهنم لمحيطة بالكافرين) أى و إن النار لمطيفة بمن كفر بالله وجحد آياته وكذب رسله ، جامعة لهم يوم القيامة ، وكفى بها نكالا ووبالا .

وهذا وعيد لهم على الفتنة التى تردّوا فيها ، و بيان لأن عقابهم بإحاطة جهنم بهم عقاب على الكفر الذى حملهم على ذلك الاعتذار ، و إنما تحيط النار بمن أحاطت بهم خطاياهم حتى لا رجاء فى توبتهم منها كما قال تعالى « بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » .

(إن تصبك حسنة تسؤهم) الحسنة ما يسر النفس حصوله من غنيمة ونصر ونحوهما: أى إن كل ما يسرك من النصر والغنيمة كما حدث يوم بدر ـ يورثهم كآبة وحزنا لفرط حسدهم وعداوتهم .

(و إن تصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل و يتولوا وهم فرحون) أى و إن تصبك شدة كانكسار جيش كما حدث يوم أحد ـ يقولوا معجبين بآرائهم حامدين ما صنعوا ، قد تلافينا ما يهمنا من الأمر بالحذر والحزم كما هو دأبنا ، إذ تخلفنا عن القتال ولم نلق بأيدينا إلى الهلاك ، و ينصرفوا عن الموضع الذى يقولون فيه هذا القول وهم فرحون فرح البطر والشماتة .

روى ابن أبى حاتم عن جابر بن عبد الله رضى الله عنه قال : جعل المنافقون الذين تخلفوا فى المدينة يشيعون أخبار السوء عن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه و يقولون إنهم جهدوا فى سفرهم وهلكوا ، فبلغهم بعد ذلك كذب خبرهم وعافية النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل الله (إن تصبك حسنة تسؤهم) الآية .

(قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنا) أى قل أيها الرسول لأولئك المنافقين الذين يفرحون بمصابك وتسوءهم نعمتك : لن يصيبنا إلا ما خط لنا وكتب فى اللوح المحفوظ على حسب سننه تعالى فى خلقه من نصر وغنيمة أو تمحيص وشهادة ، ولا يتغير ذلك بموافقتكم أو مخالفتكم ، فالأمور كلها بقضائه تعالى .

(هو مولانا وعلى الله فليتوكل المؤمنون) أى هو ناصرنا ومتولى أمورنا بتوفيقنا ونصرنا ، ونحن نلجأ إليه ونتوكل عليه ، فلا نيأس عند شدة ولا نبطر عند نعمة كما قال سبحانه فى بيان سننه تعالى فى خلقه (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ) .

ومن حق المتوكل على الله وحده أن يقوم بما أوجبه عليه فى شرعه ، ويهتدى بسننه فى خلقه ، من الأخذ بأسباب النصر المادية والمعنوية كإعداد العُدّة واتقاء التنازع الذى يولد الفشل ويفرق الكلمة ، ثم بعد ذلك يكل الأمر إليه فيما لا تصل إليه الأيدى من الأسباب ويتوقف عليه حصول النجاح .

ويقابل التوكل بهذا المعنى اتكال الماديين على حولهم وقوتهم وحدها ، حتى إذا أدركهم العجز خانهم الصبر وأدركهم اليأس حين حلول البأس ، واتكال ذوى الأوهام الذين يتعلقون بالأمانى والأحلام ، حتى إذا ما استبان لهم فساد أوهامهم نكصوا على أعقابهم وكفروا بوعد ربهم بنصر المؤمنين ، وهو إنما وعد أولياءه لا أولياء الشيطان وذوى الخرافات والأوهام .

(قل هل تربصون بنا إلا إحدى الحسنيين ونحن نتربص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا ، فتربصوا إنا معكم متربصون) أى قل لهم : أيها الجاهلون ، هل تنتظرون بنا إلا إحدى العاقبتين النصر أو الشهادة ، ونحن نتربص بكم إحدى السُّوءيين أن يصيبكم ربكم بقارعة سماوية لا كسب لنا فيها ، كما فعل بالأمم

المكذبة لرسلها، أو أن يأذن لنا بقتالكم إن أغراكم الشيطان بإظهار كفركم، فتربصوا بنا إنا معكم متربصون من عاقبتنا وعاقبتكم إن أصررتم على كفركم وظهر أمركم ، فنحن على بينة من ربنا ولا بينة لكم ، فإذا لقى كل منا ومنكم ما يتربصه ، لا نشاهد إلا ما يسوءكم ولا تشاهدون إلا ما يسرنا .

والدين لا يأمر بقتل المنافق مادام يظهر الإسلام ويقيم الصلاة ويؤتى الزكاة .

قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا لَنْ يُتَقَبَّلَ مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْمًا فَاسِقِينَ (٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ (٥٤) فَلاَ تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه اعتذار المنافقين بالمعاذير الكاذبة ، وتعللاتهم الباطلة فى التخلف عن القتال ، وذكر ما يجول فى نفوسهم من كراهتهم للرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، وأنهم يتربصون بهم الدوائر — قفى على ذلك ببيان أن نفقاتهم على الجهاد فى هذه الحال طوعا أو كرها لن يتقبلها الله ولا ثواب لهم عليها ، لما يبطنونه فى صدورهم من الكفر والفسوق عن أمر الله ، فهم إن فعلوا شيئا من أركان الدين فإنما يفعلونه رئاء الناس وخوفا على أنفسهم من الفضيحة إذا هم تركوها ، وأن أموالهم الكثيرة إنما هى عذاب لهم فى الدنيا والآخرة .

الإيضاح

(قل أنفقوا طوعا أو كرها لن يتقبل منكم إنكم كنتم قوما فاسقين) أى قل أيها الرسول لهؤلاء المنافقين : أنفقوا من أموالكم ما شئتم فى الجهاد أو فى غيره من

النفقات التى أمر الله بها وحث فى شرعه عليها حال الطوع تقيّة وحفظا للنفس ، وكرها خوفا من العقوبة ، فهما أنفقتم فلن يتقبل منكم ما دمتم فى شك مما جاء به الرسول من الدين والجزاء على الأعمال فى الآخرة ، لأنكم قوم فاسقون أى خارجون من دائرة الإيمان ، والله إنما يتقبل من المؤمنين .

(وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفروا بالله وبرسوله) أى وما منع قبول نفقاتهم إلا كفرهم بالله وصفاته على الوجه الحق ، وكفرهم برسالة رسوله وما جاء به من الهدى والبينات .

(ولا يأتون الصلاة إلا وهم كسالى) أى ولا يصلون إلا رياء وتقيّة ، لا إيمانا بوجوبها ، ولا قصدا إلى ثوابها واحتسابا لأجرها ، ولا تكميلا لأنفسهم بما شرعه الله لأجلها ، لأنهم لا يأتونها إلا وهم متثاقلون كسالى لا تنشرح لها نفوسهم ولا تنشط لها أبدانهم .

(ولا ينفقون إلا وهم كارهون) أى ولا ينفقون أموالهم فى مصالح الجهاد وغيره إلا وهم كارهون لذلك غير طيبة به أنفسهم ، لأنهم يعدون هذه النفقات مغارم تضرب عليهم ينتفع بها المؤمنون وهم ليسوا منهم ، فلا نفع لهم بما أنفقوا لا فى الدنيا وهو واضح ولا فى الآخرة ، إذ لا يؤمنون بها .

ولما كان من أقوى أسباب إعراضهم عن آيات الله كثرة المال وطغيان الغنى بين سبحانه سوء عاقبة المال لهم فقال

(فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم) الإعجاب بالشىء السرور به مع الافتخار واعتقاد أنه ليس لغيره ما يساويه ، والخطاب لكل من سمع القول أو بلغه .

أى فلا تعجبك أيها السامع أموالهم ولا أولادهم التى هى من أكبر النعم وأجلّها ، ولا يجولن بخاطرك أنهم ـ وقد حرموا ثوابها فى الآخرة ـ صفا لهم نعيمها فى الدنيا ، وإلى هذا أشار بقوله سبحانه :

(إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا) بما ينالهم بسببها من التنغيص والحسرة .

أما الأموال فلأنهم يلاقون النصب والتعب فى جمعها واكتسابها ، ويلاقون ما هو أشد من ذلك فى حفظها وصونها من الهلاك ، فالمشغوف بالمال يكون أبدا فى تعب الحفظ والصون ، وهو مع ذلك لا ينتفع إلا بالقليل منها كما قال عليه السلام «مالَكَ من مالِكَ إلا ما أكلت فأفنيت ، أو لبست فأبليت ، أوتصدقت فأمضيت» .

وأما الأولاد فإنهم يرون أنهم قد نشئوا فى الإسلام واطمأنت به قلوبهم ، فهم يجاهدون فى سبيل الله بأنفسهم وأموالهم ، وربما ماتوا فى الغزو — فيجزعون أشد الجزع ، إذ لا يعتقدون شهادتهم ، وأنهم أحياء عند ربهم يرزقون ، وأن الاجتماع بهم قريب كما يعتقد المؤمنون .

(وتزهق أنفسهم وهم كافرون) أى ويموتون ويهلكون وهم كافرون ، فيعذبون بها فى الآخرة إثر ما عذبوا بها فى الدنيا ، لموتهم على الكفر الذى يحبط أعمالهم .

وَيَحْلِفُونَ بِٱللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ ، وَلَـٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ (٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) .

شرح المفردات

الفرق (بالتحريك) الخوف الشديد الذى يفرق بين القلب وإدراكه ، والملجأ : المكان الذى يلجأ إليه الخائف ليعتصم به كحصن أو قلعة أو جزيرة فى بحر أو قُنّة فى جبل ، والمغارات: واحدها مغارة وهى الكهف فى الجبل يغور فيه الإنسان ويستتر والمدّخل (بالتشديد) السرب فى الأرض يدخله الإنسان بمشقة ، والجماح السرعة التى تتعذر مقاومتها .

المعنى الجملى

بعد أن بيّن سبحانه أن المنافقين يظهرون غير ما يضمرون ، فإذا هم طلبوا الإذن خوف الفتنة كانوا كاذبين ، وذكر أنهم يتمنون أن تدور الدوائر على المؤمنين قفى على ذلك بذكر غلوهم فى النفاق وأنهم لا يتحرجون أن يحلفوا الأيمان الفاجرة لستر نفاقهم خوف الفضيحة ، وأنهم يتمنون أن يجدوا أىّ السبل للبعد عن المؤمنين ، فيلجئوا إليها مسرعين .

الإيضاح

(ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون) أى ويحلفون بالله لكم كذبا إنهم منكم فى الدين والملة ، وهم ليسوا من أهل دينكم وملتكم ، بل هم أهل شك ونفاق ، ولكنهم يخافونكم فيقولون بألسنتهم ماليس فى قلوبهم .

(لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدّخلا لولوا إليه وهم يجمحون) أى إنهم لشدة كرههم للقتال معكم ولبغض معاشرتهم إياكم ولعظيم الخوف من ظهور نفاقهم لكم يتمنون الفرار منكم والعيش فى مكان يعتصمون به من انتقامكم منهم ، فلو استطاعوا السكنى فى الحصون والقلاع ، أو فى كهوف الجبال ومغاراتها ، أو فى أنفاق الأرض وأسرابها ــ لولوا إليه مسرعين كالفرس الجموح لايردهم شىء .

وإنما وصفهم الله سبحانه بتلك الأوصاف ، لأنهم إنما أقاموا بين أظهر أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم مع كفرهم ونفاقهم وعداوتهم لهم ، لأنهم كانوا بين عشيرتهم وفى دورهم وأموالهم ، ولم يقدروا على ترك ذلك وفراقه ، فصانعوا القوم بالنفاق ودافعوا عن أنفسهم وأموالهم وأولادهم بإخفاء الكفر ودعوى الإيمان ، وفى أنفسهم ما فيها من البغض لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأهل الإيمان به وبالغ الحقد عليهم .

وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ ، فَإِنْ أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَاهُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ سَيُؤْتِينَا اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ ، إِنَّا إِلَى اللهِ رَاغِبُونَ (٥٩) .

شرح المفردات

اللمز : العيب والطعن فى الوجه ، والهمز : الطعن فى الغيبة ، ورغبه ورغب فيه : أحبه ، ورغب عنه : كرهه ، ورغب إليه : طلبه وتوجه إليه .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أن المنافقين لايتحرجون عن كاذب الأيمان إذا وجدوا فى ذلك طريقا لخدعة المؤمنين فى تصديقهم بأنهم مؤمنون كما هم مؤمنون كى يأمنوا جانبهم ، وأنهم يجدّون فى البعد عنهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا ـ أردف ذلك بذكر سوأة أخرى من سوءاتهم وهى أنهم يتمنون الفرص للطعن على النبى صلى الله عليه وسلم حتى يوقعوا الريب فى قلوب ضعفاء الإيمان من المسلك الذى يوافق أهواءهم ، وقد وجدوا من ذلك قسمة الصدقات والمغانم ، فولجوا هذا الباب وقالوا ما شاءوا أن يقولوا .

روى البخارى والنسائى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : « بينما النبى صلى الله عليه وسلم يقسم قسما إذ جاءه ذو الخويصرة التميمى فقال اعدل يا رسول الله، فقال : ويلك ومن يعدل إذا لم أعدل ؟ فقال عمر بن الخطاب : ائذن لى أن أضرب عنقه ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم دعه فإن له أصحابا يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فنزلت فيهم (ومنهم من يلمزك فى الصدقات) الآية » .

وروى ابن جرير عن داود بن أبى عاصم قال : أتى النبى صلى الله عليه وسلم بصدقة فقسمها ها هنا وها هنا حتى ذهبت ورأى ذلك رجل من الأنصار فقال ما هذا بالعدل فنزلت هذه الآية .

ومجموع الروايات يدل على أن أشخاصا من منافقى المدينة قالوا ذلك لحرمانهم من العطية ، ولم يقله أحد من المهاجرين ولا من الأنصار الأولين الذين بايعوا النبى صلى الله عليه وسلم فى منى .

الإيضاح

(ومنهم من يلمزك فى الصدقات) أى ومن المنافقين من يعيبك ويطعن عليك فى قسمة الصدقات وهى أموال الزكاة المفروضة إذ يزعمون أنك تحابى فيها وتؤتى من تشاء من الأقارب وأهل المودة ولا تراعى العدل فى ذلك .

ثم بين سبحانه أسباب هذا اللمز وأن منشأه حرصهم على حطام الدنيا فقال :

(فإن أعطوا منها رضوا) أى فإن أعطوا ولو بغير حق كأن أظهروا الفقر كذبا واحتيالا ، أو أعطوا لتأليف قلوبهم - رضوا بهذه القسمة واستحسنوا فعلك .

(وإن لم يعطوا منها إذاهم يسخطون) أى وإن لم يعطوا منها فاجئوك بالسخط وإن لم يكونوا مستحقين للعطاء ، إذ لاهمّ لهم إلا المنفعة الدنيوية ونيل حطام الدنيا .

(ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنا إلى الله راغبون) أى ولو أنهم رضوا ما أعطاهم الله من الغنائم وغيرها ، وأعطاهم رسوله بقسمة الغنائم والصدقات كما أمره الله ، وقالوا الله يكفينا فى كل حال ، وسيعطينا من فضله بما يرد علينا من الغنائم والصدقات ، لأن فضله لاينقطع ، ورسوله لا يبخس أحدا منا شيئا يستحقه فى شرع الله ، وقالوا إنا إلى الله نرغب فى أن يوسع علينا من فضله فيغنينا عن الصدقة وغيرها من صلات الناس والحاجة إليهم - لو فعلوا ذلك لكان خيرا لهم من الطمع فى غير مطمع ومن همز الرسول ولمزه .

والخلاصة — إنهم لو رضوا من الله بنعمته ، ومن الرسول بقسمته ، وعلقوا أملهم بفضل الله وكفايته ، وبما سينعم به عليهم فى مستأنف الأيام ، وبأن الرسول يعدل فى القسمة لـكان فى ذلك الخير كل الخير لهم .

وفى ذلك إيماء إلى أن المؤمن يجب أن يكون قانعا بكسبه وما يناله بحق من صدقة ونحوها مع توجيه قلبه إلى ربه ، ولايرغب إلا إليه فى الحصول على رغائبه التى وراء كسبه وحقوقه الشرعية .

إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللهِ وَابْنِ السَّبِيلِ ، فَرِيضَةً مِنَ اللهِ ، وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) .

شرح المفردات

الصدقة : هى الزكاة الواجبة على النقد والأنعام والزرع والتجارة ، والفقير : من له مال قليل دون النصاب (أقل من اثنى عشر جنيها) والمسكين : من لاشىء له فيحتاج للمسألة لقوته وكسوته ، والعامل عليها : هو الذى يوليه السلطان أو نائبه العمل على جمعها من الأغنياء ، والمؤلفة قلوبهم : هم الذين يراد استمالة قلوبهم إلى الإسلام أو التثبيت فيه ، وفى الرقاب : أى وللانفاق فى إعانة الأرقاء لفكاكهم من الرق ، والغارمين : أى الذين عليهم غرامة من المال تعذر عليهم أداؤها ، وفى سبيل الله : أى وفى الطريق الموصل إلى مرضاة الله ومثوبته ، والمراد بهم كل من سعى فى طاعة الله وسبل الخيرات كالغزاة والحجاج الذين انقطعت بهم السبل ولا موردلهم من المال وطلبة العلم الفقراء ، وابن السبيل : هو المسافر الذى بعد عن بلده ولايتيسر له إحضار شىء من ماله فهو غنىّ فى بلده ، فقير فى سفره : فريضة من الله أى فرض الله ذلك فريضة ليس لأحد فيها رأى .

الإيضاح

مصارف الزكاة والأشخاص الذين تعطى لهم وهم أصناف ثمانية :

(١) (إنما الصدقات للفقراء) أى إنما تعطى زكاة النقد أو النعم أو التجارة أو الزرع للفقراء الذين يحتاجون إلى مواساة الأغنياء ، لعدم وجود ما يكفيهم من المال على حسب حالهم .

(٢) (والمساكين) وهم أسوأ حالا من الفقراء لقوله تعالى : « أَوْ مِسْكِيناً ذَا مَتْرَبَةٍ » أى ألصق جلده بالتراب فى حفرة استتر بها مكان الإزار ، وبطنه به لشدة الجوع وذلك منتهى الضر والشدة .

(٣) (والعاملين عليها) وهم الذين يبعثهم السلطان لجبايتها أو حفظها ، فيشمل الجباة (المحصلين) وخزنة المال (مديرو الخزائن) وهم يأخذون منها عمالتهم على عملهم لا على فقرهم .

روى أحمد والشيخان أن ابن السعدى المالكى قال : استعملنى عمر على الصدقة فلما فرغت منها وأديتها إليه أمر لى بعمالة ، فقلت إنما عملت لله ، فقال : خذ ما أُعطيت فإنى عملت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فعمّلنى (أعطانى العمالة) فقلت مثل قولك ، فقال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم « إذا أُعطيت شيئا من غير أن تسأل فكل وتصدق » .

(٤) (والمؤلفة قلوبهم) وهم قوم يراد استمالتهم إلى الإسلام ، أو تثبيتهم فيه ، أو كف شرهم عن المسلمين ، أو رجاء نفعهم فى الدفاع عنهم أو نصرهم على عدوّ لهم ، وهم أصناف ثلاثة :

(ا) صنف من الكفار يرجى إيمانهم بتأليف قلوبهم كصفوان بن أمية الذى وهب له النبى صلى الله عليه وسلم الأمان يوم فتح مكة وأمهله أربعة أشهر لينظر فى أمره ، وأعطاه إبلا محملة فقال هذا عطاء من لا يخشى الفقر ، وروى أنه قال : والله

لقد أعطانى وهو أبغض الناس إلىّ ، فما زال يعطينى حتى إنه لأحب الناس إلى ، وقد حسن إسلامه .

(ب) صنف أسلم على ضعف ، ويرجى بإعطائه تثبيته وقوة إيمانه ومناصحته فى الجهاد كالذين أعطاهم النبى صلى الله عليه وسلم العطايا الوافرة من غنائم هوازن ، وهم بعض الطلقاء من أهل مكة الذين أسلموا وكان منهم المنافق ومنهم ضعيف الإيمان ، وقد ثبت أكثرهم بعد ذلك وحسن إسلامهم .

(حـ) صنف من المسلمين فى الثغور وحدود بلاد الأعداء يعطون لما يرجى من دفاعهم عمن وراءهم من المسلمين إذا هاجمهم العدو .

ويرى أبو حنيفة أن سهم هؤلاء قد انقطع بإعزاز الله الإسلام ، واحتج بأن مشركا جاء يلتمس من عمر مالا فلم يعطه وقال (من شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وبأنه لم ينقل أن عثمان وعليا أعطيا أحدا من هذا النوع .

(٥) (وفى الرقاب) أى وللإنفاق فى فك الرقاب بإعانة المكاتبين من الأرقاء فى فك رقابهم من الرق ، أو لشراء العبيد وإعتاقهم ، وهذا من أكبر الإصلاح البشرى الذى هو المقصود من رحمة الإسلام وعدله .

روى أحمد والبخارى عن البراء بن عازب قال : «جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم وقال : دلنى على عمل يقربنى من الجنة ويبعدنى من النار ، فقال : أعتق النسمة وفك الرقبة ، فقال يا رسول الله أو ليسا واحدا ؟ قال لا : عتق الرقبة أن تنفرد بعتقها ، وفك الرقبة أن تعين بثمنها» .

(٦) (والغارمين) وهم الذين عليهم ديون ركبتهم وتعذر عليهم أداؤها . وقد كان العرب إذا وقعت بينهم فتنة اقتضت غرامة فى دية أو غيرها قام أحدهم فتبرع بالتزام ذلك والقيام به حتى ترتفع تلك الفتنة الثائرة ، وكانوا إذا علموا أن واحدا منهم التزم غرامة أو تحمل حمالة بادروا إلى معونته على أدائها وإن لم يسأل ، وكانوا يعدون سؤال المساعدة على ذلك فخرا لا ذلا .

فعن قَبِيصَة بن مخارق الهلالى قال : « تحملت حمالة فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فيها، فقال أقم حتى تأتينا الصدقة فنأمر لك بها ، ثم قال يا قبيصة: إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك، ورجل أصابته جائحة اجتاحت ماله فحلت له المسألة حتى يصيب سدادا من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من أهل الحجا من قومه : لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواما من عيش ، فما سواها من المسألة يا قبيصة فسُحْت يأكلها صاحبها سحتا » رواه أحمد ومسلم والنسائى وأبو داود .

(٧) (وفى سبيل الله) وسبيل الله هو الطريق الموصل إلى مرضاته ومثوبته ، والمراد به الغزاة والمرابطون للجهاد، وروى عن الإمام أحمد أنه جعل الحج من سبيل الله ، ويدخل فى ذلك جميع وجوه الخير من تكفين الموتى و بناء الجسور والحصون وعمارة المساجد ونحو ذلك .

والحق أن المراد بسبيل الله مصالح المسلمين العامة التى بها قوام أمر الدين والدولة دون الأفراد كتأمين طرق الحج وتوفير الماء والغذاء وأسباب الصحة للحجاج و إن لم يوجد مصرف آخر ، وليس منها حج الأفراد لأنه واجب على المستطيع فحسْبُ .

(٨) (وابن السبيل) وهو المنقطع عن بلده فى سفر لا يتيسر له فيه شىء من ماله إن كان له مال ، فهو غنى فى بلده ، فقير فى سفره ، فيعطى لفقره العارض ما يستعين به على العودة إلى بلده .

وفى ذلك عناية بالسياحة وتشجيع عليها على شرط أن يكون سفره فى غير معصية ، ويكون هذا من أسباب التعاون على البر والتقوى ، وعدم التعاون على الإثم والعدوان .

وسهولة طرق الوصول فى العصر الحاضر ونقل الأخبار فى الزمن القليل جعلت نقل المال من بلد إلى آخر ميسورا بلا كلفة ، فيسهل على الغنى أن يجلب ماله فى أى وقت أراد ، وإلى أى مكان طلب .

(فريضة من الله) أى إنما الصدقات لمن ذكر من أصناف المحتاجين ، وفيما ذكر من مصالح الأمة فريضة من الله لهم أوجبها عليكم .

(والله عليم حكيم) أى والله عليم بأحوال الناس ومقدار حاجتهم ، حكيم فيما يشرعه لهم تطهيرا لأنفسهم وتزكية لها ، وشكرا لخالقهم على ما أنعم به عليهم كما قال: « خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا » .

وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ، قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٦١) .

شرح المفردات

الأذى : ما يؤلم الحى المدرك فى بدنه أو فى نفسه ولو ألما خفيفا ، يقال أذى بكذا أذى وتأذى تأذيا إذا أصابه مكروه يسير ، والأذن : هو الذى يسمع من كل أحد ما يقول فيقبله ويصدقه ، ويقولون رجل أذن : أى يسرع الاستماع والقبول ، ويؤمن للمؤمنين : أى يصدقهم لما علم فيهم من علامات الإيمان الذى يوجب عليهم الصدق .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر سبحانه أن من دلائل نفاقهم الطعن فى أفعاله صلى الله عليه وسلم كإيذاء الذين لمزوه فى قسمة الصدقات — قفى على ذلك بذكر من طعن فى أخلاقه وشمائله الكريمة بقولهم إن محمدا أذن نحلف له فيصدقنا .

روى ابن اسحق وابن المنذر عن ابن عباس قال : « كان نبتل بن الحرث يأتى

رسول الله صلى الله عليه وسلم فيجلس إليه فيسمع منه ثم ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الذى قال لهم إنما محمد أذن ، من حدثه شيئا صدقه فأنزل الله الآية » .

وروى أنه اجتمع ناس من المنافقين فيهم جلاس بن سويد بن صامت ومخشّ ابن حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا فى النبى صلى الله عليه وسلم فنهى بعضهم بعضا وقالوا نخاف أن يبلغ محمدا فيقع بكم ، وقال بعضهم : إنما محمد أذن نحلف له فيصدقنا فنزل (ومنهم الذين يؤذون النبى) الآية .

الإيضاح

(ومنهم الذين يؤذون النبى ويقولون هو أذن) أى ومن المنافقين جماعة يؤذون رسول الله صلى الله عليه وسلم ويعيبونه ويقولون هو أذن سامعة : أى يسمع من كل أحد ما يقوله ويقبله ويصدقه ، وهم يريدون بذلك أنه سليم القلب سريع الاغترار بكل ما يسمع دون أن يتدبر فيه ويميز بين ماهو جدير بالقبول لوجود أمارات الصدق فيه ، وما لا ينبغى قبوله ، وهذا عيب فى الملوك والرؤساء لما يترتب عليه من تقريب المنافقين وإبعاد الناصحين ، وإنما قالوا ذلك لأنه كان عليه السلام يعاملهم بأحكام الشريعة كما يعامل عامة المؤمنين بالبناء على الظاهر ، فظنوا أنه يصدّق كل مايقال له .

(قل هو أذن خير لكم) أى إنه أذن ولكنه نعم الأذن ، لأنه أذن خير لا كما تزعمون ، فهو لايقبل مما يسمعه إلا مايعتقد أنه الحق وما فيه المصلحة للخلق ، وليس بأذن فى سماع الباطل كالكذب والنميمة والجدل والمراء ، وإذا سمعه من غير أن يستمع إليه لايقبله ولا يصدق ما لايجوز تصديقه كما هو شأن الملوك والزعماء الذين يتقرب إليهم أهل الأهواء بالسعاية لإبعاد الناصحين المخلصين عنهم ، وحملهم على إيذاء من يبتغون إيذاءه .

ثم بين سبحانه المراد من أذن الخير بقوله :

(يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) أى يصدق بالله وبما يوحى إليه مما فيه خيركم وخير

غيركم ، و يصدق المؤمنين الصادقى الإيمان من المهاجرين والأنصار ، لما علمه من آيات إيمانهم الذى يوجب عليهم الصدق فيما يحدثونه به .

وفى هذا إيماء إلى أنه لايؤمن لهؤلاء المنافقين إيمان تسليم ولايصدقهم فى أخبارهم وإن وكدوها بالأيمان اغترارا بلطفه وأدبه صلى الله عليه وسلم إذ كان لايواجه أحدا بما يكره ، و بمعاملته إياهم كما يعامل أمثالهم من عامة أصحابه .

(ورحمة للذين آمنوا منكم) أى وهو رحمة للذين آمنوا منكم إيمانا صحيحا صادقا إذ كان سبب هدايتهم إلى مافيه سعادتهم فى الدنيا والآخرة ، لا لمن أظهر الإسلام وأسرّ الكفر نفاقا ، فهو نقمة عليه فى الدارين .

(والذين يؤذون رسول الله لهم عذاب أليم) أى والذين يؤذون الرسول بالقول أو بالفعل فجزاؤهم العذاب الشديد الإيلام .

وهذه الآية وما فى معناها دليل على أن إيذاء الرسول صلى الله عليه وسلم كفر إذا كان فيما يتعلق برسالته ، لأن ذلك ينافى الإيمان . وأما إيذاؤه فى شئونه البشرية والعادات الدنيوية فحرام لا كفر كإيذاء الذين كانوا يطيلون المكث فى بيوته لدى نسائه بعد الطعام وفيهم نزل : « إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ » وإيذاء الذين كانوا يرفعون أصواتهم فى ندائه ويسمونه باسمه كما قال تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ » .

وإيذاؤه صلى الله عليه وسلم بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى كإيذائه فى حال حياته كالخوض فى أبويه وآل بيته بما يعلم أنه يؤذيه لو كان حيا ، فالإيمان به صلى الله عليه وسلم مانع من تصدى المؤمن لما يعلم أو يظن أنه يؤذيه صلوات الله عليه إيذاء ما ، فهذا الذنب من أكبر الذنوب ومعصية من أعظم المعاصى .

يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كَانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ، ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣) .

شرح المفردات

المحادة من الحد : وهو طرف الشيء كالمشاقة من الشق (بالكسر) وهو الجانب ونصف الشيء المنشق منه ، وهما بمعنى المعاداة من العدوة (بالضم) وهى جانب الوادى، لأن العدو يكون فى غاية البعد عمن يعاديه عداء البغض بحيث لا يتزاوران ولا يتعاونان فكأن كلا منهما فى شق وعدوة غير التى فيها الآخر ، إذ هما على طرفى نقيض ، وهكذا المنافقون يكونون فى الجانب المقابل للجانب الذى يحب الله لعباده والرسول لأمته من الحق والخير والعمل الصالح .

المعنى الجملى

روى ابن المنذر عن قتادة قال : « ذكر لنا أن رجلا من المنافقين قال فى شأن المتخلفين فى غزوة تبوك الذين نزل فيهم ما نزل : والله إن هؤلاء لخيارنا وأشرافنا ، و إن كان ما يقول محمد حقا لهم شر من الحمر ، فسمعها رجل من المسلمين فقال : والله إن ما يقول محمد لحق ، ولأنت شر من الحمار ، وسعى بها الرجل إلى نبى الله صلى الله عليه وسلم فأخبره ، فأرسل إلى الرجل فدعاه فقال : (ما حملك على الذى قلت ؟) فجعل يتلعن (يلعن نفسه) و يحلف بالله ما قال ذلك ، وجعل الرجل المسلم يقول : اللهم صدق الصادق وكذب الكاذب فأنزل الله (يحلفون بالله لكم ليرضوكم) الآية».

الإيضاح

(يحلفون بالله لكم ليرضوكم) هذا خطاب للمؤمنين أى يحلفون لكم إنهم ما قالوا ما نقل عنهم مما يورث أذاة النبى صلى الله عليه وسلم ليرضوكم ، وقد كان من

دأبهم أن يتكلموا بما لاينبغى أن يقال ثم يأتونهم فيعتذرون إليهم ويؤكدون معاذيرهم بالأيمان ليعذروهم ويرضوا عنهم .

وفى كثرة الاعتذار والحلف للمؤمنين فى كل ما يعلمون أنهم متهمون به من قول أو فعل ليرضوهم فلا يخبروا الرسول صلى الله عليه وسلم ــ دليل على أنهم شعروا بظهور نفاقهم وافتضاح أمرهم .

(والله ورسوله أحق أن يرضوه) أى والحال أن الله ورسوله أحق بالإرضاء من المؤمنين ، فإن المؤمنين قد يصدقونهم فيما يحلفون عليه إذا لم يكن كذبهم فيه ظاهرا معلوما باليقين ، ولكن الله لايخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ويعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، فيوحى إلى رسوله صلى الله عليه وسلم من أمور الغيب مافيه المصلحة للمؤمنين .

وفى التعبير بيرضوه دون يرضوهما إشعار بأن إرضاء رسوله هو عين إرضائه تعالى ، لأنه إرضاء له فى اتباع ما أرسله به .

(إن كانوا مؤمنين) أى إن كانوا مؤمنين كما يدّعون ويحلفون ــ فليرضوا الله ورسوله وإلا كانوا كاذبين .

وفى الآية عبرة المنافقين فى زماننا وفى كل زمان ، إذ يحلفون حين الحاجة إلى تأكيد أخبارهم فيما يحاولون به إرضاء الناس ، وبخاصة الملوك والوزراء الذين يتقربون إليهم فيما لايرضى ربهم ، بل فيما يسخطه بأخس الوسائل وأقذر السبل .

ثم وبخهم على ما أقدموا عليه مع علمهم بوخامة عاقبته بما سمعوا من الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :

(ألم يعلموا أنه من يحادد الله ورسوله فأن له نار جهنم خالدا فيها) أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون أن الأمر الحق الذى لاشك فيه هو أن من يحاد الله ورسوله بتعدى حدوده أو يلمز الرسول فى أعماله كقسمة الصدقات ، أو فى أخلاقه وشمائله كقولهم هو أذن ــ فجزاؤه جهنم يصلاها يوم القيامة خالدا فيها أبدا لامخلص له منها .

(ذلك الخزى العظيم) أى ذلك العذاب هو الذل والهوان العظيم الذى يصغر دونه كل خزى وذل فى الحياة الدنيا .

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ ، قُلِ اسْتَهْزِئُوا ، إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ، قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ؟ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ ، إِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦) .

شرح المفردات

الحذر : الاحتراز والتحفظ مما يخشى ويخاف منه ، والإخراج : إظهار الشىء الخفى المستتر كإخراج الحب والنبات من الأرض ، والخوض : الدخول فى البحر أو فى الوحل ، وكثر استعماله فى الباطل لما فيه من التعرض للأخطار ، والاعتذار : الإدلاء بالعذر ، وهو ما يراد به محو أثر الذنب وترك المؤاخذة عليه من عذر الصبى يعذره أى ختنه تطهيراً له بقطع عذرته أى قلفته ، والطائفة : الجماعة من الناس والقطعة من الشىء: يقال ذهبت طائفة من الليل ومن العمر، وأعطاه طائفة من ماله.

المعنى الجملى

جاءت هذه الآيات لبيان حال من أحوال المنافقين كشفت عنها غزوة تبوك ، أخرج ابن أبى شيبة وابن أبى حاتم عن مجاهد أن المنافقين كانوا يقولون القول فيما بينهم ثم يقولون عسى ألا يفشى علينا هذا . وأخرج أبو الشيخ عن قتادة قال : كانت هذه السورة تسمى الفاضحة فاضحة المنافقين ، وكان يقال لها المنبئة لأنها أنبأت بمثالبهم وعوراتهم .

الإيضاح

(يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما فى قلوبهم) أى يحذر المنافقون أن تنزل على المؤمنين سورة تخبرهم بما فى قلوبهم أى قلوب المنافقين وتهتك عليهم أستارهم وتفشى أسرارهم .

وهذا الحذر والإشفاق أثر طبيعى للشك والارتياب ، إذ هم كانوا شاكين مرتابين فى الوحى ورسالة الرسول ولم يكونوا موقنين بشىء من الإيمان ولا من الكفر ، فهم مذبذبون لاهم بالمؤمنين الموقنين ، ولا بالكافرين الجازمين بالكفر، ولو كانوا على واحد منهما لما خطر لهم الخوف على بال ، إذ تكون قلوبهم مطمئنة بأحد الأمرين .

والخلاصة — إنهم يحذرون أن تنزل سورة فى شأنهم و بيان حالهم ، فتكون فى ذلك فضيحتهم وكشف عوراتهم و إنذارهم ماقد يترتب عليه من عقابهم .

(قل استهزئوا إن الله مخرج ماتحذرون) أى استهزئوا فإن الله سينزل على رسوله ما يفضحكم به و يبين أمركم .

ونحو الآية قوله : « أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ » .

ولايخفى مافى هـذا من التهديد والوعيد على فعلهم وكونه سببا لإخراجه تعالى مايحذرون ظهوره من مخبئات سرائرهم .

(ولئن سألتهم ليقولن إنما كنا نخوض ونلعب) أى إنك إن سألتهم عن أقوالهم هذه يعتذرون عنها بأنهم لم يكونوا فيها جادين ولا منكرين ، بل هازلين لاعبين للتسلى والتلهى ، وكانوا يظنون أن هذا عذر مقبول لجهلهم أن اتخاذ الدين هزوا ولعبا كفر محض كما قال تعالى : « فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلَاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ» وقال: «فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ».

ويدخل فى عموم الآية المبتدعون فى الدين والذين يخوضون فى الداعين إلى الكتاب والسنة ويستهزئون بهم لاعتصامهم بهما .

أخرج ابن المنذر وأبو الشيخ عن قتادة قال : «بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوته إلى تبوك إذ نظر إلى أناس بين يديه يقولون : أيرجو هذا الرجل أن تفتح له قصور الشام وحصونها ؟ هيهات هيهات ، فأطلع الله نبيه صلى الله عليه وسلم على ذلك ، فقال : (احبسوا علىّ هؤلاء الركب) فأتاهم فقال قلتم كذا وقلتم كذا . قالوا يانبى الله إنما كنا نخوض ونلعب ، فأنزل الله فيهم ما تسمعون » .

(قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون ؟) أى إن الخوض واللعب فى صفات الله وشرعه وآياته المنزلة استهزاء بها ، إذ كل مايلعب به فهو مستخفّ به ، وكل مستخف به فهو مستهزأ به .

وقصارى ذلك — ألم تجدوا ما تستهزئون به فى خوضكم ولعبكم إلا الله وآياته ورسوله فقصرتم ذلك عليهما ، فهل ضاقت عليكم سبل القول ، فلم تجدوا ماتخوضون فيه وتلعبون غير هذا ، ثم بعدئذ تظنون أن معاذيركم بمثل هذا تقبل وتدلون بها بلا خوف ولا خجل .

(لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) أى لاتذكروا هذا العذر لدفع هذا الجرم ، لأن الإقدام على الكفر لأجل اللعب لاينبغى أن يكون ، فاعتذاركم إقرار بذنبكم فهو كما يقال : عذر أقبح من الذنب .

(إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين) أى إن نعف عن بعضكم لتوبتهم وإنابتهم إلى ربهم كمَخَشّ بن حُمَيْر نعذب بعضا آخر لإجرامهم وإصرارهم عليه .

وخلاصة ذلك — إن من تاب من كفره ونفاقه عفى عنه ، ومن أصر عليه وأظهره عوقب به .

الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ ، يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ، نَسُوا اللهَ فَنَسِيَهُمْ ؛ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِيَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ اللهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ أَمْوَالاً وَأَوْلاَدًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلاَقِهِمْ ، فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلاَقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ بِخَلاَقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خَاضُوا ، أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ ، أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، فَمَا كَانَ اللهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠).

شرح المفردات

بعضهم من بعض : أى متشابهون فيه وصفا وعملا كما تقول أنت منى وأنا منك أى أمرنا واحد لافتراق بيننا ، والمنكر: إما شرعى وهو مايستقبحه الشرع وينكره ، وإما فطرى : وهو ما تستنكره العقول الراجحة والفطر السليمة لمنافاته للفضائل والمنافع الفردية والمصالح العامة ، وضده المعروف فى كل ذلك ، وقبض الأيدى : يراد به الكف عن البذل ، وضده بسط اليد ، نسوا الله : أى تركوا أوامره حتى صارت بمنزلة المنسى ، فنسيهم : أى فجازاهم على نسيانهم بحرمانهم من الثواب على ذلك فى الآخرة ، والفاسقون : أى الخارجون عن الطاعة المنسلخون عن فضائل الإيمان ، والوعد : يستعمل فى إعطاء الخير والشر والنافع والضار ، والوعيد خاص بالشر ،

واللعن: الإبعاد من الرحمة والإهانة والمذلة ، والمقيم : الثابت الذى لا يتحول ، بخلاقهم: أى بنصيبهم من ملاذ الدنيا ، وخضتم : أى دخلتم فى الباطل ، وحبط العمل : فسد وذهبت فائدته ، والخسارة فى التجارة : تقابل الربح فيها ، وأصحاب مدين: قوم شعيب، والمؤتفكات واحدها مؤتفكة من الائتفاك : وهو الانقلاب بجعل أعلى الشىء أسفله بالخسف ، وهى قرى قوم لوط .

المعنى الجملى

ذكر سبحانه فى هذه الآيات أنواعا وضروبا من قبائح المنافقين ذكرانهم وإناثهم، وقرنها بالوعيد الشديد بما أعد لهم من الجزاء فى زمرة إخوانهم الكفرة الذين من قبلهم على ما كانوا يقترفون من الفساد والإفساد ، وتلاه بضرب المثل الذى يشرح حالهم لبيان السنن العامة فى روابط الاجتماع وآثار الأخلاق فى تلك الروابط .

الإيضاح

(المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض) أى إن أهل النفاق رجالا ونساء يتشابهون فى صفاتهم وأخلاقهم وأعمالهم كما قال تعالى فى آل إبراهيم وآل عمران « ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ » وقال الشاعر :

تلك العصا من هذه العُصَيَّه ... هل تلد الحيَّة إلا حيه

ثم بين ذلك التشابه فقال :

(يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم) أى إن بعضهم يأمر بعضا بالمنكر كالكذب والخيانة وإخلاف الوعد ونقض العهد كما جاء فى الحديث : « آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان » رواه الشيخان عن أبى هريرة .

وينهون عن المعروف كالجهاد وبذل المال فى سبيل الله للقتال كما حكى الله عنهم بقوله : « هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا » .

واقتصر من منكراتهم الفعلية على الامتناع عن البذل ، لأنه شرها وأضرها وأقواها دلالة على النفاق ، كما أن الإنفاق فى سبيل الله أقوى دلائل الإيمان .

(نسوا الله فنسيهم) أى نسوا أن يتقربوا إليه بفعل ما أمر به وترك ما نهى عنه ولم يعد يخطر ببالهم أن له عليهم حق الطاعة والشكر ، واتبعوا أهواءهم ووساوس الشيطان ، فجازاهم على ما فعلوا بحرمانهم من لطفه وتوفيقه فى الدنيا ، ومن الثواب فى الآخرة .

(إن المنافقين هم الفاسقون) أى إن المنافقين الناكبين عن الصراط المستقيم إلى سبل الشيطان هم أكثر الناس فسوقا وخروجا من جميع الفضائل ، حتى من الكفار الذين يعتقدون صحة عقائدهم الباطلة ، فهم لا يبلغون مبلغهم فى الفسوق والخروج من طاعة الله والانسلاخ من فضائل الفطر السليمة .

ثم بين سبحانه ما أعد لهم ولأمثالهم من العقاب جزاء لهم على أعمالهم فقال :

(وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنم خالدين فيها) أى وعد الله هؤلاء جميعا نار جهنم يصلونها ماكثين فيها أبدا .

وقدم المنافقين فى الوعيد على الكفار للإيذان بأنهم وإن أظهروا الإيمان وعملوا أعمال الإسلام ــ شر من الكفار ، ولا سيما المتدينين منهم بأديان محرفة أو منسوخة كأهل الكتاب .

(هى حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم) أى إن نار جهنم فيها من الجزاء ما يكفيهم عقابا لهم فى الآخرة على أعمالهم ، وعليهم لعنة الله فى الدنيا والآخرة بحرمانهم من رحمته التى لا يستحقها إلا المؤمنون الصادقون ، ولهم عذاب مقيم غير عذاب جهنم كالسموم الذى يلفح وجوههم ، والحميم الذى يصهر ما فى بطونهم ، والضريع الذى

لا يسمن ولا يغنى من جوع ، وحرمانهم من لقاء الله وكرامته والحجاب دون رؤيته كما قال : « كَلاَّ إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ . ثُمَّ إِنَّهُمْ لَصَالُوا الْجَحِيمِ » .

(كالذين من قبلكم كانوا أشد منكم قوة وأكثر أموالا وأولادا فاستمتعوا بخلاقهم) أى أنتم أيها المنافقون المؤذون لله ورسوله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين كأولئك المنافقين الذين خلوا من قبلكم فى أقوام الأنبياء ، فتنتم بأموالكم وأولادكم وغررتم بدنياكم كما فتنوا وغروا بها ، ولكنهم كانوا أشد منكم قوة وأكثر منكم أموالا وأولادا ، وقد كان جل مطلبهم وسعيهم هو التمتع بنصيبهم وحظهم الدنيوى من الأموال والأولاد ، فأطغتهم الدنيا وأغرتهم لذاتها ، ولم يكن لهم مقاصد شريفة من الحياة كالتى يقصدها أهل الإيمان بالله ورسله والدار الآخرة من إعلاء كلمة الحق وإقامة ميزان العدل والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

(فاستمتعتم بخلاقكم كما استمتع الذين من قبلكم بخلاقهم) أى وقد سلكتم أيها المنافقون سبيلهم فى الاستمتاع بخلاقكم ، فأنتم فعلتم بدينكم ودنياكم كما فعل الذين كانوا من قبلكم ، ولم تفضلوا عليهم بشىء من الاسترشاد بكلام الله وهدى رسوله ، إذ لم تعملوا شيئا من الفضائل التى تزكى النفوس وتجعلها أهلا للسعادة ، فكنتم أجدر بالعقاب منهم ، لأنهم أوتوا من القوة والأموال فوق ما أوتيتم ، ولم يروا من آيات الله ما رأيتم .

والخلاصة — إنكم حذوتم حذوهم وسلكتم سبيلهم مع توافر الدواعى على فعل ضد ما تعملون .

(وخضتم كالذى خاضوا) أى ودخلتم فى الباطل كما دخلوا على ما بين حالكم وحالهم من الفوارق التى كانت تقتضى أن تكونوا أهدى منهم سبيلا .

(أولئك حبطت أعمالهم فى الدنيا والآخرة وأولئك هم الخاسرون) أى إن أولئك المستمتعين بخلاقهم وحظهم والخائضين فى الباطل حبطت أعمالهم الدنيوية

فكان ضررها أكبر من نفعها لهم ، لإسرافهم و إفسادهم فى الأرض ، وكذلك أعمالهم الدينية فى الآخرة من عبادات وصلة رحم وصدقة وقرى ضيف ، فلم يكن لهم أجر عليها ينقذهم من عذاب النار ويدخلهم الجنة ، إذ شرط قبولها فى الآخرة الإيمان والإخلاص ، فهم خسروا فى مظنة الربح والمنفعة .

ونحو الآية قوله : « هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً . الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً ؟ » .

ثم نبههم وحذرهم سوء عاقبة أعمالهم فقال :

(ألم يأتكم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات) أى ألم يأت أولئك المنافقين والكفار الذين كانوا فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم خبر الأمم الذين كانوا من قبلهم حين عصوا رسلهم وخالفوا أمر ربهم فأخذهم العذاب كالطوفان الذى أغرق قوم نوح ، والريح العقيم التى أهلكت عادا قوم هود ، والصيحة التى أخذت ثمود ، والعذاب الذى هلك به النمروذ الذى حاول إحراق إبراهيم ، والخسف الذى نزل بقرى قوم لوط وهم فيها .

وما كان من سنة الله ولا من مقتضى عدله وحكمته أن يظلمهم بما حل بهم من العذاب ، وقد أعذرهم وأنذرهم ليجتنبوه ، ولكن كانوا يظلمون أنفسهم بجحودهم وعنادهم وعدم مبالاتهم بإنذار رسلهم .

وقد ضرب هذا المثل للكافرين برسالته صلى الله عليه وسلم والمنافقين ، ليبين لهم أن سنة الله فى عباده واحدة لاظلم فيها ولا محاباة ، فلابد أن يحل بهم من العذاب مثل ما حل بأمثالهم من أقوام الرسل إن لم يتوبوا .

وقد أهلك الله تعالى أكابر الجاحدين المعاندين منهم فى أول غزوة وهى غزوة بدر ، ثم خذل من بعدهم فى سائر الغزوات ، وما زال المنافقون يكيدون له فى السر حتى فضحهم الله بهذه السورة ، فتاب أكثرهم ومات زعيمهم عبد الله بن أبىّ بغيظه وكفره ، ولم تقم للنفاق قائمة من بعده .

وبهذا التمحيص كانت أمة محمد صلى الله عليه وسلم خير أمة أخرجت للناس ـ نشر الله بهم أعلام دينه حتى سادوا العالم جميعه .

وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ، وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ، ذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢)

المعنى الجملى

بعد أن ذكر عز اسمه أفعال المنافقين الخبيثة وذكر ما أعده لهم من العذاب فى الدنيا والآخرة ـ قفى على ذلك بذكر صفات المؤمنين الذين زكت نفوسهم وطهرت سرائرهم وما أعده لهم من الثواب الدائم والنعيم المقيم .

الإيضاح

(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) الولاية ضد العداوة ، وتشمل ولاية النصرة وولاية الأخوة والمودة ، ونصرة النساء تكون فيما دون القتال من الأعمال المتعلقة بتعبئة الجيوش من الأمور المالية والبدنية ، وكان نساء النبى صلى الله عليه وسلم ونساء أصحابه يخرجن مع الجيش يسقين الماء ويجهزن الطعام ويحرضن على القتال ويرددن المنهزم من الرجال قال حسان :

تظل جيادنا متمطرات ... تلطمهن بالخمر النساء

وقال فى وصف المومنين : بعضهم أولياء بعض ، وفى وصف المنافقين بعضهم

من بعض ـ لأن المؤمنين بينهم أخوة ومودة وتعاون وتراحم حتى شبه النبى صلى الله عليه وسلم جماعتهم بالجسد الواحد ، وبالبنيان يشد بعضه بعضا ، وبينهم ولاية النصرة فى الدفاع عن الحق والعدل وإعلاء كلمة الله .

أما المنافقون فيشبه بعضهم بعضا فى الشكوك والذبذبة وما يتبعها من الجبن والبخل ، وهما يمنعان من التناصر ببذل النفس والمال ، وقصارى أمرهم التعاون بالكلام ومالا يشق من الأعمال ، ومن ثم أكذب الله منافقى المدينة فى وعدهم لليهود حلفائهم بنصرهم على النبى صلى الله عليه وسلم والمؤمنين إذا قاتلوهم فى قوله: «أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ نَافَقُوا يَقُولُونَ لِإِخْوَانِهِمُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا ، وَإِنْ قُوتِلْتُمْ لَنَنْصُرَنَّكُمْ ، وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. لَئِنْ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ ، وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَا يَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُوَلُّنَّ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُنْصَرُونَ» .

(يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله) وصف الله المؤمنين بصفات خمس تضاد مثلها فى المنافقين .

(ا) إنهم يأمرون بالمعروف والمنافقون يأمرون بالمنكر .

(ب) إنهم ينهون عن المنكر والمنافقون ينهون عن المعروف ، وهاتان الخصلتان هما سياج الفضائل ومنع فشو الرذائل .

(حـ) إنهم يؤدون الصلاة على أقوم وجه وأكمله بخشوع وإخبات لله وحضور القلب فى مناجاته ، والمنافقون إذا قاموا إلى الصلاة قاموا وهم كسالى يراءون الناس .

(د) إنهم يعطون الزكاة المفروضة عليهم وما وفقوا له من التطوع ، والمنافقون يقبضون أيديهم ، والمنافقون وإن كانوا يصلون ، لم يكونوا يقيمون الصلاة ، وكانوا يزكون وينفقون ولكن خوفا أو رياء لا طاعة لله تعالى كما قال سبحانه: «وَمَا مَنَعَهُمْ

أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلاَّ أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلاَ يَأْتُونَ الصَّلاَةَ إِلاَّ وَهُمْ كُسَالَى وَلاَ يُنْفِقُونَ إِلاَّ وَهُمْ كَارِهُونَ » .

(هـ) إنهم يستمرون على الطاعة بترك مانهوا عنه وفعل ماأمروا به بقدر الطاقة ، وبضد ذلك المنافقون فإنهم فاسقون خارجون عن حظيرة الطاعة كما تقدم .

ثم ذكر ما يكون لهم من حسن العاقبة وعظيم الجزاء على جميل أعمالهم فقال :

(أولئك سيرحمهم الله) أى إنه تعالى يتعهدهم برحمته فى الدنيا والآخرة باستمرارهم على طاعته وطاعة رسوله ، ويقابل هذا نسيانه تعالى للمنافقين ولعنه إياهم .

(إن الله عزيز حكيم) أى إنه تعالى عزيز لايمتنع عليه شىء من وعده ولاوعيده ، حكيم لايضع شيئا منهما فى غير موضعه .

وبعد أن بيّن صفاته ورحمتــه لهم إجمالا ـ بين ما وعدهم به من الجزاء المفسر لرحمته تفصيلا فقال :

(وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيبة فى جنات عدن) الجنات : البساتين الملتفة الأشجار التى تجنّ ماتحتها أي تغطيه وتستره ، وجريان الأنهار من تحت أشجارها مما يزيد جمالها ، والمساكن الطيبة فى جنات عدن هى الدور والخيام التى يطيب لساكنيها المقام فيها لاحتوائها على ما يطلبون من الأثاث والرياش والزينــة التى بها تتم راحة المقيم فيها وسروره ، والعدن : الإقامة والاستقرار ، يقال عدن فى مكان كذا إذا أقام فيه وثبت ، فجنات عدن هى جنات الإقامة والخلود كقوله : « جَنَّةُ الْخُلْدِ ـ جَنَّةُ الْمَأْوَى » وقيل إنه منزل من منازل دار النعيم كالفردوس الذى هو أوسط الجنة أو أعلاها .

روى عن أبى هريرة « إن فى الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين فى سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض ، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ، ومنه تفجر أنهار الجنة وفوقه عرش الرحمن » .

(ورضوان من الله أكبر) رضوان الله هو مقام رؤيته تعالى التى تكمل بها معرفته

والإنسان جسد وروح ، فنى الجنات ومساكنها أعلى النعيم الجسمانى ، ورضوان الله هو أعلى النعيم الروحانى .

(ذلك هو الفوز العظيم) أى ذلك الوعد بالنعيم الجسمانى والروحانى هو الفوز العظيم الذى يُجْزَى به المؤمنون المخلصون ، لاغيره من حظوظ الدنيا الفانية التى يتكالب عليها الكفار والمنافقون .

وقد ورد فى وصف الجنة ودرجاتها أحاديث بعضها موضوع ، و بعضها منكر ، ومن ذلك ماروى عن أبى هريرة وعمران بن حصين أنهما قالا لمن سألهما : على الخبير سقطت ، وأنهما سألا عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرا وصفا طويلا، منه أنه يوجد هناك ألوف من البيوت فى كل منها ألوف من الحور العين ، وهو حديث منكر من دسائس الوضاعين ككعب الأحبار وغيره . قال ابن القيم : لم يثبت فى نساء الجنة حديث صحيح بأكثر من زوجين لكل رجل .

يَأَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللهِ مَا قَالُوا ، وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاَمِهِمْ وَهَمُّوا بِمَا لَمْ يَنَالُوا ، وَمَا نَقَمُوا إِلاَّ أَنْ أَغْنَاهُمُ اللهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ ، فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْرًا لَهُمْ ، وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللهُ عَذَابًا أَلِيماً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ ، وَمَا لَهُمْ فِي الأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ (٧٤) .

شرح المفردات

الجهاد ، والمجاهدة : استفراغ الجهد والوسع فى مدافعة العدو ، وهو ثلاثة أضرب : مجاهدة العدو الظاهر . مجاهدة الشيطان . مجاهدة النفس والهوى ، ويشير إلى هذه

كلها قوله تعالى : « وَجَاهِدُوا فِي اللهِ حَقَّ جِهَادِهِ ـ وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللهِ » وقال صلى الله عليه وسلم « جاهدوا أهواءكم كما تجاهدون أعداءكم » وقال «جاهدوا الكفار بأيديكم وألسنتكم » والجهاد باللسان : إقامة الحجة والبرهان ، والجهاد باليد : الجهاد بالسيف وكل الوسائل الحربية ، والغلظة : الخشونة والشدة فى المعاملة ، وهى ضد اللين . ونقم منه الشىء : أنكره وعابه عليه .

المعنى الجملى

بعد أن وصف الله تعالى المؤمنين بشريف الصفات ، ووعدهم بأجزل الثواب وأرفع الدرجات ـ أعاد الكرة إلى تهديد المنافقين و إنذارهم بالجهاد كالكفار المجاهرين بكفرهم إذا هم استرسلوا فى إظهار ما ينافى الإسلام من الأقوال والأفعال كالقول الذى قالوه وأنكروه بعد أن أظهره الله عليه وكذبهم فى إنكارهم .

وجهادهم ألا يعاملوا معاملة المؤمنين الصادقين ، فيقابلون بالغلظة والتجهم لا بالطلاقة والبشر إلى نحو ذلك مما سيذكر بعد .

الإيضاح

(يأيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) أى ابذل أيها النبى جهدك فى مقاومة هاتين الطائفتين اللتين تعيشان بين ظهرانَيْك بمثل ما يبذلان من جهد فى عداوتك ، وعاملهما بالغلظة والشدة التى توافق سوء حالها .

وقد اتفق الأئمة على أن المنافقين يعاملون بأحكام الشريعة كالمسلمين الصادقين ، فلا يقاتلون إلا إذا ارتدوا أو بغوا على جماعة المسلمين بالقوة أو امتنعوا من إقامة شعائر الإسلام وأركانه . وعن ابن عباس رضى الله عنه قال : جهاد الكفار بالسيف ، وجهاد المنافقين باللسان : أى بالحجة والبرهان .

وكان كفار اليهود يؤذون النبي صلى الله عليه وسلم حتى بتحريف السلام عليه بقولهم (السام عليكم) ، والسام الموت فيقول : (وعليكم) ثم تكرر نقضهم للعهد حتى كان من أمرهم ما تقدم ذكره ، وكان يعامل المنافقين باللطف واللين بناء على حكم الإسلام الظاهر ، فجرّأهم هذا على أذاه بنحو قولهم (هو أذن) فأمره الله فى هذه الآية بالغلظة على الفريقين فى جهاده التأديبى لهم ، لأن أمثالهم لاعلاج له إلا هذا كما قال :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا مضرّ كوضع السيف فى موضع الندى

وهو جهاد فيه مشقة عظيمة ، لأنه موقف وسط بين رحمته ولينه للمؤمنين المخلصين ، وشدته فى قتاله لأعدائه المحاربين ، يجب فيه إقامة العدل واجتناب الظلم ، وأثر عن عمر أنه قال : (أذلوهم ولا تظلموهم) .

وفى هذه الغلظة تربية للمنافقين وعقوبة لهم يرجى أن تكون سببا فى هداية من لم يطبع الكفر على قلبه وتحط به خطايا نفاقه ، فتقطيب وجهه صلى الله عليه وسلم فى وجوههم تحقير لهم يتبعه فيه المؤمنون ، ومن ير أنه محتقر بين قومه وأبناء جنسه من الرئيس وغيره يضق صدره ، ويحاسب نفسه ويثب إلى رشده ويتب إلى ربه .

وهذه السياسة الحكيمة كانت سبب توبة أكثر المنافقين وإسلام ألوف الألوف من الكافرين .

(ومأواهم جهنم وبئس المصـــير) أى لامأوى لهم يلجئون إليه إلا دار العذاب التى لايموت من أوى إليها ، ولا يحيا حياة طيبة ، وبئس المصير هى « إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا » .

والخلاصة — إنهم قد اجتمع لهم عذابان : عذاب الدنيا بالجهاد والغلظة ، وعذاب الآخرة بأن تكون جهنم مأواهم .

ثم ذكر سبحانه الجرائم الموجبة لجهادهم كالكفار ، وهى أنهم أظهروا الكفر بالقول وهموا بشرّ مايغرى به من الفعل ، وهوالفتك برسول الله صلى الله عليه وسلم ،

وقد أظهره الله عليه وأنبأه بأنهم سينكرونه إذا سألهم ويحلفون على إنكارهم ليصدقهم كدأبهم من قبل ، فقد كانوا يحلفون للمؤمنين ليرضوهم كما قال تعالى « اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً » ويخوضون فى آيات الله وفى رسوله استهزاء خرجوا به من الإيمان الذى يدعونه إلى الكفر الذى يكتمونه فقال :

(يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة الكفر وكفروا بعد إسلامهم وهموا بما لم ينالوا) أى يحلفون بالله إنهم ما قالوا تلك الكلمة التى نسبت إليهم ، والله يكذبهم ويثبت أنهم قد قالوا كلمة الكفر التى رويت عنهم ، ولم يذكر القرآن هذه الكلمة لأنه لا ينبغى ذكرها ، ولئلا يتعبد المسلمون بتلاوتها ، وأصح ما قيل فيها ما رواه ابن جرير والطبرانى وأبو الشيخ وابن مردويه عن ابن عباس رضى الله عنه قال : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جالسا فى ظل شجرة فقال : إنه سيأتيكم إنسان ينظر إليكم بعينى شيطان ، فإذا جاء فلا تكلموا ، فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق ، فدعاه رسول الله فقال له : علام تشتمنى أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله ما قالوا ، فتجاوز عنهم فأنزل الله : يحلفون بالله ما قالوا الآية » .

أما همهم بما لم ينالوا فهو اغتيال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى العقبة منصرفه من تبوك — ذاك أنه لما رجع رسول الله صلى الله عليه وسلم قافلا من تبوك إلى المدينة ، حتى إذا كان ببعض الطريق مكر برسول الله صلى الله عليه وسلم ناس من المنافقين فتآمروا أن يطرحوه من عقبة فى الطريق ، فلما بلغوا العقبة أرادوا أن يسلكوها معه ، فلما غشيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر خبرهم فقال : من شاء منكم أن يأخذ ببطن الوادى فإنه أوسع لكم . وأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم العقبة وأخذ الناس ببطن الوادى إلا النفر الذين هموا بالمكر برسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم لما سمعوا بذلك استعدوا وتلثموا وقد هموا بأمر عظيم ، وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر فمشيا معه ، وأمر عمارا أن يأخذ بزمام الناقة ، وأمر حذيفة أن يسوقها ، فبينا هم يسيرون إذ سمعوا وكزة القوم من ورائهم قد

غشوه ، فغضب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر حذيفة أن يردهم ، وأبصر حذيفة غضب رسول الله صلى الله عليه وسلم فرجع ومعه مِحْجَن ، واستقبل وجوه رواحلهم فضربها ضربا بالمحجن ، وأبصر القوم وهم متلثمون ولا يشعر إلا أن ذلك فعل المسافر ، فأرعبهم الله سبحانه حين أبصروا حذيفة وظنوا أن مكرهم قد ظُهِرَ عليه فأسرعوا حتى خالطوا الناس ، وأقبل حذيفة حتى أدرك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما أدركه قال : « اضرب الراحلة يا حذيفة وامش أنت يا عمار وراءها » فأسرعوا حتى استووا بأعلاها ، فخرجوا من العقبة ينتظرون الناس ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم لحذيفة « هل عرفت من هؤلاء الركب أحدا ؟ » قال حذيفة عرفت راحلة فلان وفلان ، وقال : كانت ظلمة الليل وغشيتهم وهم متلثمون ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل علمتم ما كان شأن الركب وما أرادوا ؟ » قالوا : لا والله يارسول الله ، قال : « فإنهم مكروا ليسيروا معى حتى إذا طلعت فى العقبة طرحونى منها » قالوا : أو لا تأمر بهم يا رسول الله إذاً فنضرب أعناقهم ؟ قال : « أكره أن يتحدث الناس ويقولوا : إن محمدا قد وضع يده فى أصحابه » فسماهم لهما وقال : « اكتماهم » .

والصحيح فى عددهم ما رواه مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « فى أمتى اثنا عشر منافقا لايدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل فى سمّ الخياط ، ثمانية منهم تكفيكهم الدُّبَيْلَةُ (خرّاج ودُمَّل كبير تظهر فى الجوف تقتل صاحبها كثيرا) سراج من النار يظهر فى أكتافهم حتى ينجم من صدورهم » أى كأنه سراج من النار .

(وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله) أى وما أنكر هؤلاء المنافقون من أمر الإسلام و بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم فيهم ، شيئا يقتضى الكراهة والهمّ بالانتقام ــ إلا إغناء الله تعالى إياهم ورسوله من فضله بالغنائم التى هى عندهم أحب الأشياء لديهم فى هذه الحياة ، وكانوا كسائر الأنصار فقراء فأغناهم

الله ببعثة الرسول ونصره وبما آتاه من الغنائم كما وعده ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم للأنصار « كنتم عالة فأغناكم الله بى » .

(فإن يتوبوا يك خيرا لهم) أى فإن يتوبوا من النفاق وما يصدر عنه من مساوى الأقوال والأفعال ، يكن ذلك المتاب خيرا لهم فى الدنيا والآخرة ، أما فى الدنيا فبما فيه من التوكل على الله والرضا بقضائه ، والصبر على بلائه ، والعمل لما فيه السعادة فى الآخرة ، ومعاشرة الرسول صلى الله عليه وسلم ومشاهدة فضائله وأخوّة المؤمنين بعضهم لبعض وما فيها من الود والوفاء الكامل والإيثار على النفس إلى نحو ذلك .

وأما فى الآخرة فبما علمت مما وعد الله به المؤمنين من الجنات التى تجرى من تحتها الأنهار والمساكن الطيبة .

(وإن يتولوا يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا والآخرة) أى وإن أعرضوا عما دعوا إليه من التوبة وأصروا على النفاق وما ينشأ منه من المساوى الخلقية والنفسية — يعذبهم الله عذابا أليما فى الدنيا بما يلازم قلوبهم من الخوف والهلع كما قال سبحانه « لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ » . وقال : « يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ » فهم فى جزع دائم وهمّ ملازم .

وأما فى الآخرة فحسبك ماتقدم من وعيدهم بتلك النار التى تطلع على الأفئدة .

(وما لهم فى الأرض من ولىّ ولا نصير) أى وما لهم فى الأرض كلها من يتولى أمورهم ولا من ينصرهم ويدافع عنهم ، إذ من خذله الله فلا يقدر أحد أن يجيره .

أما فى الدنيا فأغلقت فى وجوههم الأبواب ، فقد خص الله ولاية الأخوة والمودة والنصرة بالمؤمنين والمؤمنات دون المنافقين والمنافقات ، وقد قضى الإسلام على جوار الجاهلية وعلى أحلافهم من أهل الكتاب فى الحجاز بالقتل والجلاء .

وأما فى الآخرة فقد تظاهرت النصوص على أنه لاولىّ ولا ظهير للكفار والمنافقين .

وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) .

المعنى الجملي

هذه الآيات بيان لحال طائفة أخرى من المنافقين أغناهم الله بعد فقر و إملاق ، وقد كانوا يلجئون إلى الله وقت البأساء والضراء فيدعونه و يعاهدونه على الشكر له والطاعة لشرعه إذا هو كشف ضرهم وأغناهم بعد فقرهم ، فلما استجاب دعاءهم نكصوا على أعقابهم وكفروا النعمة وهضموا حقوق الخلق — ومثل هؤلاء يوجدون فى كل زمان ومكان .

الإيضاح

(ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقن ولنكونن من الصالحين) أى ومن المنافقين من أعطى الله عهده وميثاقه لئن أغناه من فضله مالا وثروة ليشكرن له نعمته بالصدقة منها ، وليعملن عمل أهل الصلاح بأموالهم من صلة الرحم به والإنفاق فى سبيل الله كإعداد العُدة للجهاد و بذل المستطاع لخير الأمة وسعادتها بما يرقى بها فى مختلف شئونها .

(فلما آتاهم من فضله بخلوا به وتولوا وهم معرضون) أى فلما رزقهم الله وأعطاهم ما طلبوا — بخلوا بما آتاهم وأمسكوه فلم يتصدقوا منه بشىء ، وتولوا وانصرفوا عن الاستعانة به على الطاعة و إصلاح حالهم وحال أمتهم كما عاهدوا الله عليه ، ولم يكن

ذلك التولى عارضا طارئا ، بل تولوا بكل ما أوتوا من قوة بحافز نفسى ملك عليهم أمرهم ومنعهم عن التصدق ، بحيث إذا ذكّروا بما يجب عليهم لا يذكرون ، وإذا دعوا لا يستجيبون .

(فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه) قال الليث : يقال أعقبت فلانا ندامة إذا صيرت عاقبة أمره كذلك كما قال الهذلى :

أودى بنىّ وأعقبونى حسرة بعد الرقاد وعبرة لا تُقلع

أى أعقبهم ذلك البخل والتولى بعد العهد الموثق بأوكد الأيمان نفاقا فى قلوبهم متمكنا منها وملازما لها إلى يوم الحساب فى الآخرة لأنه لا رجاء معه فى التوبة .

ثم ذكر سببين هما من أخص أوصاف المنافقين ـ إخلاف الوعد والكذب فقال :

(بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون) أى إن سنة الله فى البشر قد جرت بأن العمل بما يقتضيه النفاق يمكن النفاق فى القلب ويقوّيه ، كما أن العمل بمقتضى الإيمان يزيد الإيمان قوة ورسوخا فى النفس ، وهكذا جميع الأخلاق والعقائد تقوى وترسخ بالعمل الذى يصدر منها .

فهؤلاء لما كان قد رسخ فى نفوسهم خلف الوعد واستمرار الكذب ـ مكن ذلك النفاق فى قلوبهم بمقتضى سننه وتقديره .

أخرج ابن جرير وابن مردويه والبيهقى عن ابن عباس فى قوله (ومنهم من عاهد الله) الآية : أن رجلا من الأنصار يقال له ثعلبة أتى مجلسا فأشهدهم قال : لئن آتانى الله من فضله آتيت كل ذى حق حقه وتصدقت وجعلت منه للقرابة ، فابتلاه الله فآتاه من فضله ، فأخلف ماوعده ، فأغضب اللهَ بما أخلفه ما وعده ، فقص الله شأنه فى القرآن اهـ .

(ألم يعلموا أن الله يعلم سرهم ونجواهم وأن الله علام الغيوب) أى ألم يعلم هؤلاء المنافقون الذين يعلنون غير ما يسرون ، ويتناجون فيما بينهم بالإثم والعدوان ولمز الرسول ـ أن الله يعلم السر الكامن فى أعماق نفوسهم الذى يخصون به من يثقون به

ممن هو مشارك لهم فى النفاق ، وأن الله يعلم الغيوب كلها لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء ، فكيف يكذبون على الله فيما يعاهدونه به وعلى الناس فيما يحلفون عليه باسمه .

الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ ، سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، وَاللَّهُ لَا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) .

شرح المفردات

لمزه : عابه ، والمطّوّع : أى المتطوع ، وهو من يؤدى مايزيد على الفريضة ، والصدقات : واحدها صدقة ، والجهد (بالضم والفتح) الطاقة : وهى أقصى مايستطيعه الإنسان ، وسخر منه : استهزأ به احتقارا .

المعنى الجملى

بعدأن ذكر سبحانه بُخل المنافقين وشحهم بأموالهم حتى بعد أن عاهدوا الله على الصدقة إذا آتاهم من فضله ــ أردف ذلك ببيان أنهم لم يقتصروا فى جُرمهم على هذا الحد ، بل جاوزوا ذلك إلى لمز المؤمنين وذمهم فى صدقاتهم غنيهم وفقيرهم ، وأنهم لهذا قد وصلوا إلى حد لم يعد لهم فيه أدنى حظ من الإسلام ، ولا أدنى نفع من استغفار الرسول ودعائه لهم لرسوخهم فى الكفر بالله ورسوله وعدم الرجاء فى إيمانهم .

أخرج البخارى ومسلم وغيرهما عن أبى مسعود البدرى قال : لما أمرنا بالصدقة

كنا نتحامل (يحمل بعضنا لبعض بالأجر) فجاء أبو عقيل (اسمه الحبحاح) بنصف صاع وجاء إنسان بأ كثر منه ، فقال المنافقون : إن الله غنى عن صدقة هذا ، وما فعل الآخر هذا إلا رياء . فنزلت (الذين يلمزون) الآية .

وروى ابن جرير عن عكرمة قال : حث رسول الله صلى الله عليه وسلم على الصدقة فى غزوة تبوك فجاء عبد الرحمن بن عوف بأربعة آلاف ، وقال يارسول الله : مالى ثمانية آلاف جئتك بنصفها وأمسكت نصفها فقال « بارك الله لك فيما أمسكت وفيما أعطيت » وتصدق يؤمئذ عاصم بن عدى بمائة وسق (ثلثمائة وعشرين رطلا) من تمر ، وجاء أبو عقيل بصاع من تمر ، الحديث .

الإيضاح

(الذين يلمزون المطوعين من المؤمنين فى الصدقات) أى أولئك هم الذين يلمزون المتطوعين من المؤمنين ويعيبونهم فى أمر الصدقات التى هى أظهر آيات الإيمان ، ويذمونهم فى أكمل فضائلهم ويقولون ما فعلوها لوجه الله وإنما فعلوها رئاء الناس .

فلمزهم هنا فى مقدارها وصفة أدائها لافيها نفسها ، واللمز هناك فى قسمتها ، وقد جاء فى بعض الروايات « أن النبى صلى الله عليه وسلم حث على الصدقة فجاء عمر بصدقة ، وجاء عثمان بصدقة عظيمة وكثير من أصحابه بصدقات ، فقال المنافقون : ما أخرج هؤلاء صدقاتهم إلا رياء ، وأما أبو عقيل فإنما جاء بصاعه ليذكر بنفسه» .

(والذين لايجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم) أى ويلمزون الذين لايجدون إلا جهدهم : أى الفقراء الذين تصدقوا بقليل هو مبلغ جهدهم وآخر طاقتهم ، فيستهزئون بهم احتقارا لما جاءوا به وعدّا له من الحماقة والجنون .

وخص هؤلاء بالذكر وإن كانوا داخلين فى المتطوعين ، لأن مجال لمزهم عند المنافقين أوسع ، والسخرية منهم أشد ، وهم أهل الإجلال والإكبار والأحق بالثناء عند المؤمنين .

(سخر الله منهم) أى فجازاهم الله بمثل ذنبهم ، فجعلهم سخرية للمؤمنين وللناس أجمعين بفضيحتهم فى هذه السورة ببيان مخازيهم وعيوبهم .

(ولهم عذاب أليم) تقدم بيانه فى هذه السورة بهذا اللفظ وغيره .

ثم بين سبحانه عقابهم وسوّاهم بالكافرين فقال :

(استغفرلهم أو لاتستغفرلهم ، إن تستغفرلهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم) أى إن تدعُ لهؤلاء المنافقين وتسأل الله أن يستر عليهم ذنوبهم بالعفو عنها وترك فضيحتهم بها أو لاتدع فلن يستر الله عليهم ولن يعفو عنهم ، ولكنه يفضحهم على رءوس الأشهاد يوم القيامة .

ويراد بالسبعين فى مثل هذا الأسلوب الكثرة لا العدد المعين ، فالمراد أنك مهما أكثرت من الاستغفار لهم فلن يستجاب لك فيهم ، وقد كان صلى الله عليه وسلم يستغفر لهم رجاء أن يهديهم الله فيتوب عليهم ويغفر لهم ، كما كان يدعو للمشركين كلما اشتد إيذاؤهم له ويقول « اللهم اغفرلقومى فإنهم لايعلمون » رواه ابن ماجه .

(ذلك بأنهم كفروا بالله ورسوله) أى ومن أجل جحودهم وحدانية الله وعدم إيقانهم بما وصف به تعالى نفسه من العلم بالسر والنجوى وسائر الغيوب ، وجحودهم وحيه لرسوله صلى الله عليه وسلم وبما أوجبه من اتباعه ، وجحودهم بعثه للموتى وجزاءهم على أعمالهم ــ لم يعف عن ذنوبهم ولاعما دسُّوا به أنفسهم من الآثام والمعاصى .

(والله لايهدى القوم الفاسقين) أى إن سنة الله قد جرت فيمن أصروا على فسوقهم وتمردوا فى نفاقهم وأحاطت بهم خطاياهم ــ أن يفقدوا الاستعداد للتوبة والإيمان فلا يهتدون إليهما سبيلا .

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللهِ وَكَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ اللهِ وَقَالُوا لَاتَنْفِرُوا فِى الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ

أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلاً وَلْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا، إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) .

شرح المفردات

الفرح : الشعور بارتياح النفس وسرورها ، والخلاف والمخالفة بمعنى ، ويستعمل خلافه بمعنى بعده ، يقال جلست خلاف فلان وخلفه : أى بعده ، ومنه : « وَإِذًا لاَ يَلْبَثُونَ خِلاَفَكَ إِلاَّ قَلِيلاً » والمخلّفون من خلّف فلانا : أى تركه خلفه ، ويفقهون : أى يعقلون ، والخالف : المتخلف .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر بعض سوءات المنافقين من اعتذارهم للمؤمنين عن الخروج معهم للقتال ولَمزهم فى قسمة الصدقات وفى إعطائها ، عاد إلى الكلام فى ذكر حال الذين تخلفوا عن القتال فى غزوة تبوك وظلّوا فى المدينة ، وبيان مايجب من معاملة هؤلاء بعد الرجوع إليها ، وقد نزل ذلك أثناء السفر .

الإيضاح

(فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله) أى فرح المخلفون من هؤلاء المنافقين الذين تركهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عند خروجه إلى غزوة تبوك بقعودهم فى بيوتهم مخالفين الله ورسوله ، وإنما فرحوا بذلك لأنهم لايؤمنون بما فى الخروج معه من أجر عظيم لاتذكر معه راحة القعود فى البيوت شيئا .

(وقالوا لاتنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لوكانوا يفقهون) أى وقالوا لإخوانهم فى النفاق إغراء لهم بالثبات على المنكر وتثبيطا لعزائم المؤمنين : لاتنفروا فى الحر ، قل لهم أيها الرسول مفندّا آراءهم ومسفها أحلامهم : نار جهنم التى أعدها الله لمن عصاه وعصى رسوله أشد حرا من تلك الأيام فى أوائل فصل الخريف ، إذ هذا الحر مما تحتمله الجسوم ولايلبث أن يخف ويزول ، ونارجهنم حرها شديد دائم يلفح الوجوه وينضج الجلود ،فهم لوكانوا يعقلون ذلك ويعتبرون به لماخالفوا وقعدوا ولمافرحوا بقعودهم بل لحزنواو بكوا كما فعل المؤمنون الذين أرادوا الخروج والنفقة فعجزوا .

(فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا جزاء بما كانوا يكسبون) أى إن الأجدر بهم على حسب ماتقتضيه حالهم وتستوجبه جريمتهم أن يضحكوا قليلا ويبكوا كثيرا لوكانوا يفقهون ما فاتهم بالتخلف من أجر ، وما سيحملونه فى الآخرة من وزر ، وما يلاقونه فى الدنيا من خزى وضرّ ، جزاءً لهم على ما اجترحوا من العصيان ، وارتكبوا من الإثم والبهتان ، وكما يدين الفتى يدان .

ونحو الآية قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا : يظهر النفاق ، وترتفع الأمانة ، وتقبض الرحمة ، ويتهم الأمين ، ويؤتمن غير الأمين ، أناخ بكم الشُّرُف الجون ــ الشرف بضمتين جمع أشارف وهى الناقة الكبيرة السن ، والجون السود ــ الفتن كأمثال الليل المظلم » .

ثم بين ما يجب أن يعاملوا به فى الدنيا قبل الآخرة مما يقتضى تركهم للفرح والغبطة فى دنياهم بالتمتع بأحكام الإسلام فقال :

(فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج فقل لن تخرجوا معى أبدا ولن تقاتلوا معى عدوا) أى فإن ردك الله من سفرك هـذا إلى طائفة من المنافقين المتخلفين ، فاستأذنوك ليخرجوا معك فى غزاة أو غيرها مما تخرج لأجله ، فقل لهم : لن تخرجوا معى أبدا ولن يكون لكم أبدا شرف الصحبة بالخروج معى للجهاد

فى سبيل الله مادمت ودمتم ، ولن تقاتلوا معى عدوا لابالخروج والسفر إليهم ولابغير ذلك كأن يهاجم المؤمنون فى عقر دراهم كما حدث يوم وقعة الأحزاب .

ثم بين سبب النهى عن صحبتهم فقال :

(إنكم رضيتم بالقعود أول مرة فاقعدوا مع الخالفين) أى إنكم رضيتم لأنفسكم بخزى القعود أول مرة دعيتم فيها إلى الخروج ، إذ طلب إليكم أن تنفروا فلم تنفروا وعصيتم الله ورسوله ، فاقعدوا أبدا مع الذين تخلفوا عن النفر من الأشرار المفسدين الذين خرجوا عن سبيل المهتدين ، وربما كان المراد بالخالفين الصبيان والعجزة والنساء الذين لايكلفون القيام بشرف الجهاد دفاعا عن الحق وإعلاء لكلمة الله .

وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَأَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٨٥) .

المعنى الجملى

بعد أن أمر الله رسوله بإهانة المنافقين وإذلالهم بمنعهم من الخروج معه إلى الغزوات ــ قفى على ذلك بذكر إهانة أخرى لهم وهى منع الرسول أن يصلى على من مات منهم بعد إعلامه بحقيقة أمرهم ، وفى مقدمتهم زعيمهم الأكبر عبد الله بن أبىّ والاثنا عشر الذين أرادوا اغتيال الرسول صلى الله عليه وسلم .

الإيضاح

(ولاتصلّ على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) أى لاتصل أيها الرسول بعد الآن على أحد من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك ، ولاتتولّ دفنه والدعاء له بالتثبيت كما تقوم على قبور المؤمنين عند دفنهم .

روى أبو داود والحاكم والبزار عن عثمان رضى الله عنه قال : كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه فقال «استغفروا لأخيكم وسلوا له التثبيت فإنه الآن يُسأل» .

ثم بين سبب نهيه عن الصلاة عليهم فقال :

(إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون) أى لأنهم كفروا وماتوا وهم خارجون من حظيرة الإسلام مفارقون أمر الله ونهيه .

روى أحمد والبخارى والترمذى وغيرهم عن ابن عباس قال : سمعت عمر يقول : لما توفى عبد الله بن أبىّ : دعى رسول الله للصلاة عليه فقام عليه فلما وقف قلت : أتصلى على عدو الله عبد الله بن أبىّ القائل كذا وكذا ، والقائل كذا وكذا ؟ أعدد أيامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم يبتسم حتى إذا أكثرت قال : « يا عمر أخر عنى » إنى قد خيّرت : قد قيل لى «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم - فلو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها » ثم صلى عليه ومشى معه حتى قام على قبره إلى أن فرغ منه . فعجبت لى ولجراءتى على رسول الله صلى الله عليه وسلم والله ورسوله أعلم ، فوالله ما كان إلا يسيرا حتى نزلت هاتان الآيتان « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره » فما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم على منافق بعده حتى قبضه الله عز وجل .

وقد حكم كثير من العلماء كالقاضى أبى بكر الباقلانى و إمام الحرمين والغزالى وغيرهم بعدم صحة هذا الحديث لمخالفته للآية من وجوه :

(١) جعل الصلاة على ابن أبىّ سببا لنزول الآية ، وسياق القرآن صريح فى أنها نزلت فى سفر غزوة تبوك سنة ثمان ، وابن أبىّ مات فى السنة التى بعدها .

(٢) قول عمر للنبى صلى الله عليه وسلم : وقد نهاك ربك أن تصلى عليه - يدل على أن النهى عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أبى - وقوله بعده - فصلى عليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى (ولا تصلّ على أحد منهم) الآية ـ صريح فى أنه نزل بعد موته والصلاة عليه .

(٣) قوله إنه صلى الله عليه وسلم قال : إن الله خيره فى الاستغفار لهم وعدمه ـ إنما يظهر التخيير لو كانت الآية كالحديث ولم يكن فيها التصريح بأنه لن يغفر الله لهم بسبب كفرهم ، فأو فيها للتسوية لا للتخيير .

وهناك روايات أخرى فى الصلاة على ابن أبىّ من طريق ابن عمر ومن طريق جابر .

وإنما ذكرنا هذا الحديث مع ما علمت من رأى أئمة الحديث فيه وحكمهم بأنه لا يقبل لما ذكروا من الأسباب ـ لأنه قلّما يخلو تفسير من ذكره ، وقل أن تجد من يشير إلى شىء مما يدل على ضعفه واضطرابه لمخالفته لظاهر الآية ، فرأينا أن نجعلك على بينة من أمره إذا أنت قرأته .

ثم أكد ما تقدم من النهى عن الاغترار بالأموال والأولاد ؛ لأن الأمر جد يحتاج إلى التوكيد ؛ إذ هما أعظم الأشياء جذبا للقلوب وجلبا للخواطر للاشتغال بالدنيا ، فيجب التحذير منهما مرة بعد أخرى فقال :

(ولا تعجبك أموالهم وأولادهم إنما يريد الله أن يعذبهم بها فى الدنيا وتزهق أنفسهم وهم كافرون) قد جاء مثل هذا النص فيما سبق إلا أن زيادة (لا) فى الآية السابقة للنهى عن الإعجاب بكل من الأموال والأولاد على حدته ، وهو شامل لمن كانت له إحدى المزيتين أو كلاهما ، والنهى فى هذه الآية عن الإعجاب بهم مجتمعين وهذا أدعى إلى الإعجاب بهما .

وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللَّهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ أُولُو الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ

الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ وَأُولٰئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) .

شرح المفردات

الطول (بالفتح) : الغنى والثروة ، وقد يراد به الفضل والمنة ، وذرنا : أى دعنا واتركنا ، والخوالف : واحدها خالفة ومثله خالف ، وهو من لا خير فيه ولا غناء عنده ، والطبع على القلوب : الختم عليها وعدم قبولها لشىء جديد .

المعنى الجملى

بعد أن بين سبحانه أن المنافقين عملوا الحيل والتمسوا المعاذير للتخلف عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وللقعود عن الغزو ــ قفى على ذلك بأن أبان أنه إذا أنزلت سورة فيها أمر بالإيمان والجهاد مع الرسول استأذن أولو الثروة والقدرة منهم فى التخلف عن الغزو وقالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم : دعنا نكن مع الضعفاء والزمنى العاجزين عن القتال .

الإيضاح

(وإذا أنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله استأذنك أولو الطول منهم وقالوا ذرنا نكن مع القاعدين) أى إنه كلما أنزلت سورة تدعو المنافقين ببعض آياتها إلى الإيمان بالله والجهاد مع رسوله صلى الله عليه وسلم ــ استأذنك أولو القدرة على الجهاد المفروض عليهم بأموالهم وأنفسهم ــ فى التخلف عن الجهاد وقالوا : دعنا نكن مع القاعدين فى بيوتهم من الضعفاء والزمنى العاجزين عن القتال والصبيان والنساء غير المخاطبين به .

ونحو الآية قوله : « وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلاَ أُنْزِلَتْ سُورَةٌ ؟ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ » .

وفى هذا تصريح بجبنهم ورضاهم لأنفسهم بالمذلة والهوان .

(رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أى رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف من النساء اللواتى ليس عليهن فرض الجهاد ، وهـذا منتهى الجبن وتعافه النفس الكريمة التى لاترضى بالمذلة .

ثم بين العلة فى قبولهم هذا الذل فقال :

(وطبع على قلوبهم فهم لايفقهون) أى إن الله قد ختم على قلوبهم فلا تقبل جديدا من العلم والموعظة غير ما استقر فيها واستحوذ عليها وصار وصفا لازما لها ، لأن النفاق قد أثر فيها على حسب سنة الله فى الارتباط بين العقائد والأعمال ، فهم لايفهمون ما أمروا به فهم تدبر واعتبار فيعملوا به .

(لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم) أى ولكن الرسول والذين آمنوا به وكانوا معه فى كل المهامّ الدينية لايفارقونه ـ جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وقاموا بالواجب خير قيام عملا بداعى الإيمان وأمر الله فى القرآن .

(وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون) أى وأولئك المجاهدون فى سبيل الله لهم الخيرات التى هى ثمرات الإيمان والجهاد من شرف النصر ومحو كلمة الكفر وإعلاء كلمة الله وإقامة الحق والعدل والتمتع بالمغانم والسيادة فى الأرض ، دون المنافقين الجبناء الذين ألفوا الذلة والهوان ولم يكونوا أهلا للقيام بهذه الأعباء ، وأولئك هم الفائزون بسعادة الدنيا وسعادة الآخرة دون المنافقين الذين حرموا منهما بنفاقهم بما له من الأثر فى أخلاقهم وأعمالهم .

(أعد الله لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها ذلك الفوز العظيم) تقدم شرح هذا فى آيات سابقة .

وَجَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ ، وَقَعَدَ الَّذِينَ كَذَبُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ، سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) .

شرح المفردات

المعذّر : من عذّر فى الأمر إذا قصر فيه وتوانى ولم يجدّ وهو يوهم أن له عذرافيا يفعل ولاعذر له ، وقد يكون أصله المعتذرون من اعتذر ، والمعتذر إماصادق أو كاذب ، والأعراب : هم سكان البدو ، وكذبوا الله ورسوله : أى أظهروا الإيمان بهما كذبا ، يقال : كذبته نفسه إذا حدثته بالأمانى والأوهام التى لا يبلغها ، وكذبته عينه إذا أرته ما لا حقيقة له .

المعنى الجملى

بعد أن بين حال منافقى الحضر فى المدينة ـ أردف ذلك بذكر حال الأعراب من البدو الذين طلبوا الإذن بالتخلف والذين تخلفوا بغير إذن .

الإيضاح

(وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم) أى وجاء الذين يطلبون من النبى صلى الله عليه وسلم أن يأذن لهم فى التخلف عن الخروج إلى تبوك امتثالا للنفير العام من أولى التعذير .

قال الضحاك : هم رهط عامر بن الطُّفَيل جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا نبى الله : إنا إن غزونا معك أغارت طيئ على نسائنا وأولادنا وأنعامنا ، فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أنبأنى الله من أخباركم وسيغنى الله عنكم .

واختلفت الروايات بين قائل بصدقهم فى الاعتذار ، وقائل بكذبهم فيه ، وظاهر كلام ابن عباس أنهم صادقون فى اعتذارهم ، وعليه يكون المراد بالذين كذبوا الله ورسوله جماعة غيرهم من المنافقين .

(وقعد الذين كذبوا الله ورسوله) أى وقعد عن القتال وعن المجىء للاعتذار الذين أظهروا الإيمان بهما كذبا وإيهاما على غير اعتقاد صادق ، قال أبو عمرو بن العلاء : كان كلا الفريقين مسيئا ، قوم تكلفوا عذرا بالباطل وهم الذين عناهم الله بقوله : (وجاء المعذرون) وقوم تخلفوا من غير عذر فقعدوا جرأة على الله تعالى ، فأوعد المكذبين وبعض المعتذرين بقوله :

(سيصيب الذين كفروا منهم عذاب أليم) أى سيصيب الذين كذبوا الله ورسوله من المنافقين والكاذبين من المعتذرين الذين فى قلوبهم مرض ـ عذاب أليم فى الدنيا والآخرة .

لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلاَ عَلَى الْمَرْضَى وَلاَ عَلَى الَّذِينَ لاَ يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلّٰهِ وَرَسُولِهِ ، مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ ، وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلاَ عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لاَ أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ ، رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللّٰهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ (٩٣) .

المعنى الجملى

بعد أن ذكر المعذرين والذين كذبوا الله ورسوله ، وذكر وعيدهم على سوء صنيعهم ـ قفى على ذلك بذكر أصناف ثلاثة أعذارها مقبولة ، ثم أردف هذا بذكر شر الأعذار وهو استئذان الأغنياء .

الإيضاح

(ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الذين لا يجدون ما ينفقون حرج إذا نصحوا لله ورسوله) أي إن التكليف بالغزو ساقط عن أصناف ثلاثة :

(١) الضعفاء وهم من لا قوة لهم في أبدانهم تمكنهم من الجهاد كالشيوخ والعجزة والنساء والصبيان وذوى العاهات التي لا تزول كالكساح والعمى والعرج .

(٢) المرضى وهم من عرضت لهم أمراض لا يتمكنون معها من الجهاد ، وعذرهم ينتهى إذا شفوا منها .

(٣) الفقراء الذين لا يجدون ما ينفقون منه على أنفسهم إذا ما خرجوا ، ولا ما يكفى عيالهم .

وقد كان المؤمنون يجهزون أنفسهم للقتال ، فالفقير ينفق على نفسه ، والغنى ينفق على نفسه وعلى غيره بقدر سعته كما فعلوا فى غزوة تبوك .

والخلاصة — إن هذه الأصناف الثلاثة لا حرج عليهم : أى لا ضيق عليهم ولا إثم فى قعودهم عن الجهاد الواجب على شرط أن ينصحوا لله ورسوله : أى يخلصوا لله فى الإيمان وللرسول فى الطاعة بعمل كل ما فيه مصلحة للأمة الإسلامية ولا سيما المجاهدين منها من كتمان السر والحث على البر ومقاومة الخائنين فى السر والجهر .

روى مسلم عن تميم الدارى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « الدين النصيحة ـ قالوا لمن يا رسول الله ؟ قال: لله ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم » .

وروى البخارى ومسلم عن جابر قال : بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والنصح لكل مسلم .

(ما على المحسنين من سبيل) السبيل : الطريق ، أى ليس لأحد أدنى طريق يسلكها لمؤاخذتهم ، فكل السبل مسدودة دون الوصول إليهم .

وقد جاء هذا الأسلوب كثيرا فى الكتاب الكريم ، وهو عام فى كل من

أحسن عملا من أعمال البر والتقوى كما قال تعالى : « بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ » .

وقد تفضل الشارع الحكيم فجازى المحسن بأضعاف إحسانه ولم يؤاخذ المسيء إلا بقدر إساءته .

والخلاصة — إن كل ناصح لله ورسوله فهو محسن ، ولاسبيل إلى مؤاخذة المحسن وإيقاعه فى الحرج .

ثم قفى ذلك بذكر الصفح عنهم والتجاوز عن سيئاتهم فقال :

(والله غفور رحيم) أى وهو سبحانه كثير المغفرة واسع الرحمة يستر على المقصرين ضعفهم فى أداء الواجبات ما داموا مخلصين النصح لله ورسوله ، ويدخلهم فى زمرة الصالحين من عباده .

أما المنافقون المسيئون فلا يغفر لهم ولايرحمهم إلا إذا تابوا وأقلعوا عن النفاق الذى كان سببا فى ارتكاب هذه الآثام .

(ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه) يقال حمله على البعير أو غيره أركبه إياه أو أعطاه إياه ليركبه ، وكأنّ الطالب لظهر يركبه يقول لمن يطلب منه احملنى .

أى لاحرج على من ذكروا أولا ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم على الرواحل فيخرجوا معك ، فلم تجد ما تحملهم عليه ، وهؤلاء وإن دخلوا فى عموم الذين لايجدون ما ينفقون للجهاد لفقدهم الرواحل — قد خصوا بالذكر اعتناء بشأنهم وجعلهم كأنهم قسم مستقل .

(تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألايجدوا ما ينفقون) أى انصرفوا من مجلسك وهم يبكون بكاء شديدا يصحبه حزن عميق ، فكانت أعينهم تمتلئ دمعا يتدفق من جوانبها حزنا وأسفا على أنهم لايجدون ما ينفقون ولامايركبون فى خروجهم معك للجهاد فى سبيل الله وابتغاء مرضاته .

روى ابن جرير عن ابن عباس قال: «أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس أن ينبعثوا غازين ، فجاءت عصابة من أصحابه فيهم عبد الله بن مُغْفِل المزنى فقالوا يا رسول الله احملنا فقال : (والله لا أجد ما أحملكم عليه) فأنزل الله (ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم) الآية ، وكانوا يسمون البكائين .

وفى رواية أنهم ما سألوه إلا الحملان على البغال ، وفى رواية أنهم سألوه الزاد والماء ، ولا مانع من وقوع كل هذا فى هذه الغزوة الكبيرة ، ولكن الذين فى الآية هم طلاب الرواحل .

وعدم وجود مايحملون عليه يدخل فيه مراكب النقل البرية والبحرية والهوائية فى هذا العصر ، ويتحقق العذر بفقد ما يحتاج إليه منها فى كل سفر على حسبه ، ويفقد العذر بوجوده .

ولما بين من لاسبيل عليهم فى تلك الحال ـ ذكر من عليهم السبيل فقال :

(إنما السبيل على الذين يستأذنونك وهم أغنياء) أى إنما الطريق الموصل للمؤاخذة والمعاقبة بالحق على من يطلبون الإذن فى القعود عن الجهاد والتخلف عن الغزو وهم أغنياء يستطيعون إعداد العدة من زاد وراحلة ونحو ذلك .

ثم ذكر السبب فى استحقاقهم المؤاخذة فقال :

(رضوا بأن يكونوا مع الخوالف) أى رضوا لأنفسهم بأن يكونوا مع الخوالف والخالفين من النساء والأطفال والمعذرين من المفسدين .

(وطبع الله على قلوبهم فهم لايعلمون) أى وأحاطت بهم خطاياهم وذنوبهم على حسب سنن الله فى أمثالهم ، فهم لايعلمون حقيقة أمرهم ولاسوء عاقبتهم ، وما هو سبب ذلك من أعمالهم ، فهم قد رضوا بالمهانة فى الدنيا بانتظامهم فى سلك النساء والأطفال ـ إلى أن تخلف الأفراد عن القتال الذى تسعى إليه الشعوب والأمم يعد من مظاهر الخزى والعار ، وقد جعله الدين من أقوى آيات الكفر والنفاق .

وأما سوء عاقبتهم فيكفى فيه فضيحتهم فى هذه السورة كفاء إحجامهم عن الجهاد فى سبيله ، وما أعده لهم من العذاب العظيم والخزى والنكال فى نار الجحيم .

اللهم يا مقلب القلوب والأبصار ثبت قلوبنا لدى هول الموقف والحساب ، واجعلنا ممن أخلصوا العمل فى السر والنجوى ، واحشرنا فى زمرة الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ، وسلام على المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وقد كان الفراغ من مسودة هذا الجزء فى الحادى عشر من ذى القعدة سنة اثنتين وستين وثلثمائة وألف من الهجرة بمدينة حلوان من أرباض القاهرة ، وله الحمد أولا وآخرا .

فهرست

أهم المباحث العامة التى فى هذا الجزء